

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_191045

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—880—5—8—74—10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

۸۳۲

Accession No.

A 697

Author

ف. م. ج.

فرانس، زنا تولد

Title

یلو کاسٹ

This book should be returned on or before the date last marked below.

چون کاتب العظیم

للكاتب العظیم

أنا تول فرانس

نصیب

عبد المنعم حسن

الطبعة الأولى — يناير ۱۹۳۲

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة عطايا بابا بالاس بمصر

تقدمة

أناتول فرانس^(١)

فى حى «كى ملاكى» بمدينه پارى، ولد أناتول فرانس فى السادس عشر من ابريل سنة ١٨٤٤. وأسمه الحقيقى جاك أناتول تيبو. واناتول ليس من ذؤابة الأشراف. فأبوه كان بائع كتب. وكانت مكتبته المملوءة بالكتب الأدبية والصور الفنية ملتقى كثير من الأدباء والشعراء فكان أناتول يجلس منصتاً لأقوالهم ومجادلاتهم بشغف زائد. وقد اشتغل ببيع الكتب فى دكان أبيه كما كان أميل زولا يبيعها فى بدء حياته عند «هاشيت». والتحق بجامعة ستانسيلاس بيبارى وكان لا ينفك يدرس الفن وتاريخ الأدب. وينهل من معين «دارون» و«سبنسر» و«تين» و«رينان» ويؤازر فى تحرير بعض المجلات مثل «صياد التراجم» و«الجريدة المقفاة» وفى الرابعة والعشرين من سنه حياته ألف رسالة عن «الفردى فىنى»

وتردد أناتول على مجالس البارناسيين ، وتمشى مع آدابهم
وذوقهم الفنى . وأخذ يتجول فى القسم الواقع على ضفة السين
حيث يجذباعة الكتب التى يعشقها . وفى الثلاثين أخرج للناس
ديوان « القصائد المذهبة » فى سنة ١٨٧٣ ثم أتبعه بكتاب
« أعراس الكورتين » سنة ١٨٦٦

وأولع أناتول بفن القصص فأظهر للعالم قصته الأولى
« چوكاست » ووالى اصدار قصصه التى تجلت فيها قوة خياله
وروحه الناقدة الساخرة وأودعها ترجمته وروى حادثات نفسه
فى أعطاف كتبه . فهو قصاص ماهر ، وخبير فى علم النفس ،
ولا يوجد من عهد شاتوبريان رجل كان لكتباته من التأثير
ما كان لتأليف فرانس . فأخرج بلطازار وخطيئة سيلقستر
بونار وكتاب صاحبي وتاييس ومطهى الملكة بيدوك ، وآراء
چيروم كوانيار ، والزنبقة الحمراء ، وزنبيل الصفصاف ، وحزيرة
البطريق ، وثورة الملائكة ، والحياة أيام الزهر ، وحديقة أبيقور ،
بيرسانت كلير ، ذردارة اللعب ، صدقة اللؤلؤ ، رغائب
جان سرفين ، بلتشر ، المسيو برجرية فى باريز ، ييار
نوذير ، التاريخ الهزلى ، الحجر الأبيض ، قصص جان

تورنبروش ، النساء السبع ، والآلهة عطاش .
وقد نشر مؤلفات بعض الكتاب الفرنسيين كراسين
وشاتوبريان ولافوتتين وكتب عن جان دارك كتابا فخما .
ويقول مسيو ميشيل كوردای أنه عثر على آثار خطية لهذا
الكاتب لم تنشر بعد منها كتاب ما وراء الطبيعة وفي ظل الوردية .
وقد عثر أيضاً على عناوين كتب وقصص كان في عزمه تأليفها
ولكنها لم تتم بعد وهاك أسماءها : الله . الطبيعة . الحرب .
المستقبل . العفة . الدير . الحب والموت . محاورات عن
الشيخوخة . علم الفلك .

ويقول كوردای أن أناطول كان عازما على وضع رواية
أخرى بعنوان سيكلوب . .

نعود إلى حياة هذا الفيلسوف فقد تولى تحرير القسم الأدبي
في جريدة الطان الفرنسية . وفي ديسمبر سنة ١٨٩٤ وقف
موقفا مشهوداً مع زميله « زولا » الأديب والصحافي الفرنسي
الكبير في حادثة « كابتن الفريد دريفس » حيث تحدى زولا
القضاء في مقالته « انى أتهم » وكان أن قبض عليه . ولكن
الحق الصراح ما لبث أن ظهر فأطلق سراحه . وظهرت للعالم

قوة أناطول وزولا في تقدير الحقائق وصراحتها
وظل مدة يعمل في مكتبة السنات ثم انتخب عضوا في
الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٩٦ مكان فرديناند دولسبس ثم
أنعم عليه بوسام اللجيون دونور
وزار فرانس إنجلترا في سنة ١٩١٣ ويقال أنها كانت زيارة
سياسية وفي سنة ١٩١٤ تطوع بنفسه للخدمة العسكرية .
وفي سنة ١٩٢١ نال أناطول جائزة نوبل في الآداب ووهبها
لمسكوبي المجاعات في روسيا وبينما هو يستقبل عيد ميلاده
الأول بعد الثمانين في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الساعة ٢٦ر١١
صباحا لفظ النفس الأخير بعد أن ظل يومين فاقداً لرشده .
وقد استوفى من العمر قسطا مديدا مجيدا . وخلف مجدا أثيلا .
وكان في أيامه الأخيرة كثير الحديث يؤم منزله جماعات
من الأدباء فيتحدث إليهم بفكاهته وأدبه المستملح . وقد حدث
المسيو سيم بائع الكتب ومن أكبر أصدقائه المقربين قال :
إذا ما استيقظ في الصباح هرع إلى ملابسه فيتناول أقرب
رداء إليه فيرتديه وهكذا حتى ينتهي وقد يعثر في البسه على
چاكتته قبل قميصه فيرتديها تحت القميص وفي النهاية رداء من

الصوف فاذا ما أخذك العجب من ذلك أجابك مشدوها من
عجبك : « وما وجه العجب . ألم أرتديها جميعا كما هو الواجب ؟
أنتى أشعر بالدفء الآن كما تريد أن أرتديها ! »

• وفلسفة أنا تول مزيج من السخرية والرحمة فهو يحتقر
الإنسان . ولكنه يعطف عليه ويتألم لمصائبه وكانت أفكاره
كأفكار رينان إلا أنها تهذبت عن ذى بدء . وفي هؤلاء المرتابين
الساخرين بالحياة يقول فرانس :

لقد كان ثولتير ساخطا على العواطف التي تجعل بنى الانسان
منغصين ، مبشرا بالحياة السعيدة وروح المؤانسه .

وهو الذى كان يعتقد باللاشئ . وهو الطيب القلب الساخر
المرتاب بالحياة القاسى على الجهلة والأشرار .

وكذلك رينان الذى عاش دهره ينقى الأديان ويعمل
لتوحيدها . كان يعتقد بالله ويدين بالعلم وهو واثق من مستقبل
الإنسانية !

أجل . لقد كان مرتابونا مملوءين بقوة خالدة وحمية نارية . قضوا
أيامهم فى جهاد لفق الاغلال عن أيدي بنى الانسان فهم قديسون !
وكان له فى غالب الأشياء رأيان مختلفان . رأى لغريزته

وآخر لعقله . فغريزته طالبة للذات متنسمة ذرى المجد . متعطشة الى مناعم الحياة . والذين يعرفون فرانس يعرفون عنه ميله إلى الجمال والفن . يحب كل شيء جميل من طعام شهى إلى أزهار جميلة ومن حسناء لعوب إلى أثر فنى جميل . حتى اشتهر بحبه لعصور الرومان واليونان لما فيها من جمال وفن ! وأنتك لترى ذلك جلياً في منزله الذى سماه « مغنى سعيد » حيث ملأه بالآثار الفنية الجميلة . وغرس فى حديقته الأزهار

وأما رأيه الثانى فهو يعبر عن ضميره وما يحول فى خاطره من أن العالم أنسانية معذبة وأن فيها من حادثات المكاره والخسة والوحشية ما يجب أن نعمل لنرجح كفة الخير على الشر .. وهنا ينتصر ذلك الرأى الذى ينغص عليه لذاته - على غريزته .

وكان فرانس منكراً للوحى قائلاً بدين الطبيعة وقد ساهم فى الاشتراكية والشيوعية . ووافق على مبادئهم بقلمه . ورأى فيهما واسطة للتعديل والموازنة

وأنا تول فرانس يشك فى التاريخ ويقول أنه ليس علماً بل هو ناقص . أما المؤرخون فهم رواة أقاصيص زخرفات وأحاديث تناسب مع عقلية كاتبها . فالمؤرخ لا يستطيع أن

يذكر الحقيقة التاريخية كاملة غير ناقصة بل لا بد أن يهذبها أو ينقص منها . فإذا الحقيقة تمليها على المؤرخ إرادته . فهي مشوبة بالخرافات والخطأ .

وهو يقر ما كس نوردو على قوله أن التاريخ ليس جديرا بالصفة العلية . وإن هو إلا مجموعة من الخرافات التي تعلق بذهن المؤرخين ويضيف عليها هؤلاء من بنات أفكارهم ماشاءوا وشاءت أهواؤهم . إذا فليس من فائدة من دراسة هذا التاريخ أو بالاحرى هذه السخافات والخرافات المجموعة في قالب قصصى ينظر إليها البعض كأنها حقائق لا غبار عليها فيقبلون عليها بغية الدرس والاعتماد عليها . فاذا جاءت حكومة من الحكومات وأرادت أن تحكمتنا بنوع خاص من أنظمة الحكم وجهت نظرنا إلى جهة خاصة من التاريخ الذى تختاره هى ملائمتها ومبررات تصرفاتها فيكون ذلك بمثابة خداع من تلك الحكومة أرادت به تبرير أعمالها .

وهب أننا كشفنا عن كتابات قديمة أثرية مدونة بها أقاصيص أخرى تاريخيه مخالفة فأن ذلك داع إلى أن ينبارصرح تلك الحقائق الأولى والتي سار على قوفها انكثيرون فقتلوا درساً

وتمحيصاً وذهبوا يملأون العالم بذكرها . ولكن تلك الكتابات الحديثة أضاعت معالم ما كتبه الأولون . وهكذا تتبدل الحقائق وتتغير عقائد المؤرخين تبعاً لذلك - فبعد أن كان المؤرخ يؤكد شيئاً إذا به ينكره اليوم .

فالحقيقة التاريخية ممتنع الوقوف عليها وليس في وسع المؤرخ أن يحصرها في كتاباته . ومن شرائط العلم أن يحدثنا عما يكون في أحوال خاصة : ولكن التاريخ تنقصه الوسائل التي تدرك الحاضر واستند كآصوره . بل أن التاريخ لعاجز عن التنبؤ بمحادثة واحدة .

ونتهى من ذلك إلى أن التاريخ هو مجموعة من الرسائل والمقالات ترمى إلى الحض على فضيلة من الفضائل أو اتباع نظام خاص من أنظمة الحكم . وقد يكون مجموعة قصص تشيد بذكرى بطل من الأبطال لا نعلم له من أثر إلا تلك الأقاويص . فهو محكوم عليه بأن يعيش في أودية الفوضى الحالكة لا تنيرها أنوار الحق .

هذا ما يراه أنا تول وفي كتابه آراء جيروم كوانيار تلس هذا المنحى من فلسفته حيث يشرح الأستاذ كوانيار ذلك ويذكر قصة يستدل بها وهي :

قال الأستاذ كوانيار : وإني لذا كرك لك ما قصه على
الآب بلائشيه من أن (زمير) أمير الفرس الصغير عند ما ولى
عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم أن مؤدبه قال له إن
الملك العادل القليل الخطأ هو من استنار بأعمال الأقدمين .
لذا فهو يريد أن يؤلفوا تاريخا عاما لجميع الأمم حتى يطالعه .
ولكن حذار أن ينقصوه حرفا . . فانصرفوا طائعين وشرعوا
في التأليف حتى مضت عشرون سنة مثلوا بعدها بين يدي هذا
الملك ومعهم اثنا عشر جملا يحمل كل جمل منها خمسمائة مجلد
ضخم ! . . وتقدم شيخهم فسجد بين يدي مليكه وقال : يامولاي
يتشرف خدمك علماء الدولة بأن يقدموا لجلالتكم التاريخ العام
الذي أمرتم به . وهو يقع في ستة آلاف مجلد . فلم نترك ما
أمكننا جمعه من عادات وتقلبات الأمم ومواقعها إلى غير ذلك
من أقدم الأزمنة إلى الآن . ومقدمة هذا التاريخ العام تقع في
خمسمائة مجلد ينوء بحملها جمل والتعليقات والشروح أيضا في
في خمسمائة أخرى يحملها جمل آخر .

فأجاب الملك : « إني لشاكر لكم ما بذلتموه من مجهود
وعناء في سبيل تنفيذ رغبتى . إلا أنكم تروننى مشغولا بشؤون

الرعية وسياسة المملكة . وقد تقدم سنى فليس لدى من الوقت ما اقرأ فيه هذه الستة آلاف مجلد وأنظر فى شؤون دولتى . فاحفظوا هذه المجلدات فى محل المحفوظات واجتهدوا فى عمل ملخص له كى أستطيع أن أطلعه .

وانصرف العلماء يكدون ويؤلفون . وبعد عشرين عاما أخرى جاءوا إلى الملك ومعهم ثلاثة جمال تحمل ألفا وخمسمائة مجلد . وتقدم شيخهم وكان قد أخذ منه التعب والهرم كل ما أخذ فقال بصوته الضعيف الفانى : « يا مولاي لقد اختصرنا التاريخ كما أردت ولم تترك شيئا يستحق العناية » فأجاب الملك : « يا علماء فارس . لقد هرمت واشتعل الشيب برأسى فكيف تطمعون منى فى مطالعة مجلداتكم الضخمة ؟ هللوا فاختصروه ولا تطيلوا المكث . » فأب العلماء واشتغلوا بالاختصار حتى انصرفت عشرة أعوام أخرى جاءوا بعدها ومعهم فيل يحمل خمسمائة كتاب . وتقدم شيخهم فقال « لقد اختصرناه يا مولاي كثيرا » فقال الملك « أتظنون أن اختصاركم هذا كاف لأن أقرأه وأنا فى آخر أيامى . هللوا اختصروه كثيرا حتى أقرأه قبل الموت ، وانصرفت خمسة أعوام أخرى جاء فى نهايتها شيخهم وهو يتوكأ

على عصاه . وقد أنهكه تعب تأليف خمسين عاما فتجدد وجهه
وتقوس ظهره حتى صار على أبواب الأبدية . جاء هذا الشيخ
الفانى ومعه حمار صغير يحمل مؤلفا ضخما ينوء تحت ثقله .
فقال له الحارس : « أسرع . فان الملك فى النزاع الأخير . »

وحينما رآه الملك قال بأسف « سأقضى قبل أن أعرف تاريخ
هذا العالم . » فقال شيخ العلماء وكان هو الآخر على أبواب الأبدية :
مولاي سأقول لك تاريخ هذا العالم فى ثلاث كلمات : لقد
ولدوا وتألوا وماتوا !! »

وبذلك عرف ملك فارس تاريخ العالم منذ القدم إلى الآن
فى اللحظة الأخيرة من حياته !

وبعد . فان فلسفة أناطول فرانس موضع درس عميق دقيق
فهو يعتمد على الحقائق التى يقررها هو . وإن كان التهمك يغلب
على كتاباته والسخرية تبدو فى سطورها . إلا أنها سخرية
مزوجة بالعطف على الناس وطلب العذر لهم لأنهم ضعفاء .

اما الاعتقاد الدينى وتأثيره على الأخلاق فهو يرى أن
الأفكار الدينية لا تصلح الأخلاق . ويستشهد على ذلك بتاريخ

الشعوب المسيحية وهي سلسلة مذابح واضطهادات . وأن كنهة العصبة الكاثوليكية كانوا متورعين ولكنهم كانوا أيضا قساة الأكباد . وكذلك الباباوات الذين لطخوا صفحات تاريخهم بالدم .. فكيف إذا تطمع في أن تؤثر الأفكار الدينيه على أخلاقنا ونحن لسنا أشد ورعا من أبناء الأديره .. وهنا تتور نفسه فيحمل على البشر بأنهم حيوانات شريرة وأنهم يظلون أشرارا مادامت فيهم عروق تنبض ... ولكنه لا يلبث أن يعطف عليهم ويعذرهم لأنهم ضعفا. ..

وقد قال يوما ، لا تدعون كاهنا مزعجا إلى فراش احتضاري بل ادعوا لى امرأة حسناء وأحب أن أيدى جميلة تغمض عيوني عند الرقاد الأخير ، .

... وسواء كانت عبقرية أناتول نائرة غاضبة . أم ساخرة هازئة . فلقد غمرت حياتنا بالضوء وأنارت الظلمات المحيطة بنا وبددت الشكوك والأوهام . وقد قال الأستاذ لكونت رئيس جمعية رجال الأدب أن فرانس مات عن مجد كامل وفلسفة عظيمة هي زبدة أفكار حقبة عديده ، وخلاصة فنون أعصر
مديدة . .

چوکاست

أول ما كتب

الأستاذ فرانس

في فن القصص

في احدى ليالى يوليو القائظة وقد لبست السماء حلتها الزرقاء
وتوسطها بضع سحب بيضاء.

في حديقة المنزل الخشبي الصغير الذى يملكه المسيو فيلير
دى سيساك ، جلس رينيه لونجمار الجراح المساعد فى الجيش
يتحدث إلى ابنة صاحب الدار ، وهى هيلين ، فتاة غيداء ، رشيقة
القوام ، غضة الأهاب ، رقيقة النفس ، عذبة الحديث

جلست هاته الغادة الصغيرة تنصت لأحاديث الطبيب
الشاب . وكان أمامهما على بعد كبير نهر السين العظيم ، الذى
ينعطف إلى الشمال بين شاطئين ذوى زرقة باهتة . وفى الفضاء
الشاسع كانت تختفى نواقيس الكنائس العالية وسقوف البنايات
الشاحخة تلك هى پارى . وكانت الأنوار المتساقطة على قبة
الانفاليد الذهبية تكون منها أشعة وهاجة تأخذ بالبصر . وإذ
رأت الفتاة محدثها يضع بعض الضفادع فى جيوبه صاحته به

— ما هذا يا مسيو لونجمار ، أتضع الضفادع فى جيوبك ؟

ولكن هذا خارج عن الذوق السليم

— فى داخل عرقى ، يا آنسة ، قد ثبت واحدة على لوح من الخشب . وغطيتها ثم انى أحر كها بملقطى الصغير

— ولكن هذا مفزع ! انها تتألم !

— انها تتألم قليلا فى الشتاء وكثيراً فى الصيف . إذا كان هذا الغطاء محمى من الداخل لوجب أن يكون الألم مضاعفاً ولسكنت حركات القلب

— وماذا تبغى من إيدائك الحيوانات المسكينة ؟

— لأضع أساس نظرتى الاستقرائية فى الألم . وسأثبت أن الستوئيسيان (١) لا يفقهون ما يقولون وأن زينو (٢) كان معتوها . ألا تعرفين زينو أيتها الآنسة ؟ لا تعرفينه البتة . . لقد كذب وجود الشعور . ستعرفين من هم الستوئيسيان عند ما أقول لك أنهم بلهاء ثبتت عندهم نظرية خطأ عن الألم وحلوله تحليلاً مشوها لا طعم له . ولو أن أحد هؤلاء المعتمهين كان بدلاً من هذه الضفدعة تحت ملقطى . إذاً لعرف أنهم كانوا

(١) الستوئيسيان *Stolcien* مذهب غير للكثيرين بالدهر

(٢) *Zenon* أحد فلاسفة أئينا وصاحب هذا المذهب (٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م)

خيالى العقول حينما كذبوا حدوث الألم . ثم انه من المفيد لهاته
الحيوانات أن تتعود الألم .

— أتمرح ؟ وفى أى شىء يمكن أن يفيد الألم ؟

— انه من الضروريات يا أنسة . هذا هو حامى الكائنات .
ولا ضرب لك مثلا هذا اللهب الذى لو لم يسبب لنا من الأذى
الأول إشعارا بالخطر لحرقتنا حتى العظام دون ملاحظة .

نظر الشاب إلى محدثته وأضاف :

— وهذا هو موضع الجمال فى الألم . لقد قال ريشيه ، أن

العبقرية والألم مترادفان . فأن أذكى الناس هم أكثرهم قابلية للألم

— بدهى أنك تتألم أكثر من أى شخص آخر . وسأطلب

إليك بالحاح أن تبثنى آلامك . على ما فى طلبى هذا من طيش .

— لقد أفضيت اليك بها يا أنسة . أن زينو كان أبلها . إذا

تألمت كثيرا . فانتى سأشكو وأصبح . أما أنت ، فبصفتك ذات

شعور حساس وأعصاب رقيقة . فستلجئين إلى آلة موسيقية ذات

نغمات عذبة رنانة لها أثرها فى النفس . تعزفين على أوتارها اليمانية

أنفس وأمتع القطع

إن هذا معناه فى الفرنسيه أنى سأصير تمسة . أنك لا تطاق

ومن الصعب أن يعرف الإنسان ما إذا كنت جادا في أقوالك التي تبدو من الغرابة بدرجة أن القليل الذي فهمته يجعلني في حيرة تامة . ولكن .. دع هذا المزاح وكن عاقلا مرة واحدة في حياتك إذا امكنك ، ثم قل لي : أحقا أنك ستبرحنا وستذهب بعيدا ؟

— أجل يا آنسة . إلى « فال دى جراس » . رحيل ليس له من نهاية وقد اخترت أن أتجرد من صبغتي الرسمية وألتحق كطالب في كوشين شين . ولقد قررت ذلك بعد تفكير عميق .. أنك تبسمين يا آنسة ؟ أتظنينني جذابا ؟ . ولكن أصغى إلى . ساهرب أولا من الجمالين وخادمات الفنادق وصديانها وتجار الملابس وغير هؤلاء من أعدائي الذين ينغصون على سعادتي بخدماتهم . فلن أرى قط هاته الابتسامات التي تملو وجوه خدم المنتديات . هلا لاحظت يا آنسة أن خدم المنتديات يحملون عقلا راجحا ؟ أنها ملاحظة جديرة بالذكر . ولكن لا ضرورة . لأن أذكرك ما يخطر لي من الملاحظات .. لن أرى بعد شارع سان ميشيل .. وسأجد في شغاي بعض آثار عظيمة تساعدني على إنهاء دراستي عن تكوين الأسنان في الجنس الأصفر

وأخيرا ، أفقد هذه الحياة التي تدب في عروقي . وأذبل كالليمونة
في أيامها الأخيرة . تلك الحياة التي تدفني بشغف لأن ألم بما
يحيط بي .. قولى إذا أن كل هذا يجعل رحلتى جميلة .

حملت الفتاة في الشاب بعينها الكبيرتين في هدوء .
وارتسمت على شفيتها علامات الحزن والقلق .

أن عيناها اللتان تشعان شكا وقلقا ، قد اتخذتا منظر الجمود
الممزوج بالحب واستقام أنفها وغار خذاها قليلا .. فكان
وجهها ، وقد شحب لونه يقول للسيدات : أن هذه الفتاة قد
فقدت حياتها .

وكان فيها الكبير في شيء من النعومة يدل على الرقة
والسهولة . عاد لونجمار إلى أقصوصاته المسلية .

— لا يا آنسة . يجب أن أعترف لك أنني في رحلي عن
فرنسا ساهرب من أسكافى . اتنى اصبحت لا أطيع سماع
صوته الخشن .

وهنا سأله مرة أخرى عما إذا كان سيرحل حقيقة . فغابت
الإبتسامة التي كانت تعلقو فمه وقال :

— سأسافر باكر في قطار السابعة والخامسة والخمسين صباحا

وستقلني الباخرة في طولون في السادس والعشرين إلى شاطيء
ماجنتا

وهنا طرق أذنه صوت كرات العاج التي تُتكر فوق طاولة
البليارد في المنزل الصغير . وسمع صوتاً يقول بلهجة التأكيد :
— سبعة إلى أربعة عشر !

فألقي الشاب نظرة سريعة على الباب الزجاجي الذي يؤدي
إلى اللاعبين . وقطب حاجبيه وقال عبارات الوداع بخشونة
وظهرت على وجهه علامات الضيق وأدبر مسرعاً وقد خنفته
العبرات

تبعته الفتاة ظله بلواحظها برهة . وهو يسير تحت أشجار
الخطمي . ثم نهضت وعدت حتى الحاجز الحديدي . ووضعت
منديلها على فمها لتمتع صرخة كانت ستدوى في هذا السكون لو
أنها أطلقت لنفسها العنان . . وبسطت ذراعيها ونادت بصوت
مخنوق :

— ريديه !

ولكنها هوت بذراعيها . فقد جاءت متأخرة ولم يسمعها
الشاب . وكانت تعباً فلم تستطع الوقوف . واضطجعت إلى

عمود من حديد وقد أصبحت في حالة يرثى لها . دوى صوت
اللاعب من القصر :

• — هيلين ! أين المادير (١)

هذا هو مسيو فيليردى سيساك الذى ينادى ابنته . أنتصب
بقامته القصيرة أمام اللوحة التى ثبتت عليها أرقام اللاعبين . يقرع
كرة البليارد برشاقة . وكانت عيناه تحتفیان تحت حاجبين
كثيفين . وهياته تدل على أنه خسر الدور
قال لمضيفه :

— أنتى أقدم لك يامسيو هافيلان ماديرى الذى تحضره ابنتى
أنتى رجل بطيرىكى قديم . أما أنت فبصفتك من أهل الجزائر
فلمست أشك فى أنك ذا خبرة بأنواع الأنبذة عامة وماديرى
خاصة أرجو أن تذوق هذا

أدار مسيو هافيلان بصره إلى هيلين وتناول بهدوء القدح
الذى قدمته له لقد كان هذا عملاقا ذا أسنان طويلة وأقدام

(١) هو نوع من النبيذ الممتق فى جزيرة ماديرا البورتغالية على المحيط
الاطلنطى

ضخمة . مشرب بالحمرة أصلعا . يرتدى حلة أنيقة . يرسل طرف منظاره على منكبيه .

أختفت هيلين بعد أن تفرست في أيها بشيء من القلق . وقد اعتذرت عن حضور الغذاء لأنها تشعر بانحراف . وفي غرفة الطعام المزخرفة كأنها مقهى من مقاهى الشوارع . جلس مسيو فيلير دى سيسياك يملاً الكوبات ويقطع الطعام وقد صاح : ،، هيه إلى بالسكين لقطع السمك : ،، عندما رأى هذا أمامه وعمد طرف السكين بعنف وعلق فوطته عاليا في صدريته وأخذ يمتدح أنبذته بلهجة سيرا كيوزيه جافة . أما البستاني الذى كان يخدم منذ سنة فهو يقوم بخدمة المائدة بشكل مضحك وبيلاهة لقد كان هذا نوع من القرويين الذين يلقون فى أذن سيده مقداراً كافياً من الأخبار المختلفة دون أن يفهم هذا شيئاً منها .

أكل مسيو هافيلان ما شاءت معدته : وأصبح مُورداً من الشراب وخلد إلى السكون . أما مسيو فيلير دى سيسياك فلما كان قد أعلن أنه لن يتكلم فى الأعمال . فقد أخذ يستعرض سيرته الأولى . وكان وكيلاً للأعمال وله زبائن من الملاك

والتجار ، وقد اكتسب مالا كثيرا فى وقت قصير ، لانه - وهو
ما لم يذكره - كان يرى زمنا طويلا يجب فى نواحي شارع
« رامبوتو » بجذائه الطويل ذى الكعوب المتأكلة . حينما كان
عملاؤه بعض القضايين وكانوا يجتمعون فى مكتبه المظلم فى فناء
منزل معتم مهمل .

وعلى بابه لوحة صغيرة كتب عليها اسمه فيليير والكلمات :
دى سيساك بين قوسين :
فيلير (دى سيساك) .

وعلى لوحة جديدة ، على باب مسكن آخر ، أبدل القوسين
بعلمة أخرى بعد الأسم الأول . هكذا :
فيلير ، دى سيساك

ولما أن نقل إلى مسكن جديد لثالث مرة وضع لوحة
جديدة هكذا :

فيلير دى سيساك

أما الآن فلم يعد يرى لوحات على باب وكيل الأعمال الذى
يشغل مسكنا فى الطابق الأول من احدى منازل شارع نيف
دى بتيت - شامب . وقد بنى قصرا فى ميدون . ومسيوفيلير من

سيساك قريبا من سان مامى - لاسلفيتا . بمديرية كاتال . حيث لا يزال أخوه يدير طاحونة إلى يومنا هذا .

ولما علم مسيو فيلير أن جزءا من البوت دى مولان يجب أن يهدم ليخلو محلا للمسرح الفرنسى أسرع يضع الخطط الوافية . ويرسم الخرط اللازمة . وحادث فى ذلك الملاك والتجار العظماء الذين يملكون مبانى فى البوت دى مولان . ولما كان مسيو هافيلان يملك منزلا كبيرا ملاصقا للبوت وعلى مقربة من المسرح فقد ذهب لزيارته فى قصر موريس . وهذا المنزل تملكه عائلة هافيلان منذ قرنين .

وهنا نرى أن نقص عليك شيئا من تاريخ هذه العائلة :
أسس المالى جون هافيلان مكاتبه فى عام ١٧٨٩ وكانت بينه وبين دوق أورليان صلات وثيقة . وكان يريد ترشيحه خليفة للوى السادس عشر ، إذا ، كما كان يحلم ، ما ظل الفرنسيون على نظام الملكية الدستورية . ولكن لا الحوادث فى سيرها العنيف . ولا الدوق نفسه الذى لم يكن قد وطد العزم على ذلك . حققوا ظن المالى المقدم الذى انضم إلى البلاط وصار يعمل ضد الثورة . واتصل بالملكة بواسطة السيدة الجميلة أليوت . . ولكن . . لما

كانت القذيفة الأولى وسقطت الملكية نهائيا في ١٠ أغسطس هرب الى انكلترا وأقام على صلة بدوق برنسيك والأمراء . وأراد عامله دأفيد أوار الذى كان فى عامه الأول بعد الثمانين ، أن يبقى فى پارى ليرعى مصالحهم المهددة بالضياح . ولما لم يكن قد حصل على تذكرة خاصة من الثوار . حامت حوله الشبهة وقبض عليه ثم سيق إلى الكونسيرج (محكمة الثوار) حيث ظل نسيا منسيا أكثر من أربعة أشهر قدم بعدها ، فى الثامن عشر من يوليو عام ١٩٧٤ ، كالعصاة إلى محكمة الثوار التى قضت بموته ونفذ الحكم فى اليوم نفسه على المقصلة التى نصبت على قنطرة - ترون - التى سميت (رنفرسيه)

ولم يصب مصرف هاڤيلان ما أصاب غيره من السلب والتدمير وذلك بفضل أمانة ونشاط هذا الشيخ أما البوت دى مولان فقد انتهت شهرتها كبيت مالى وقد عرضوها للأيجار وعند ما تقرر هدمها ، كانت فى حالة تعسة قتم لونها ، وتلطخت بالسواد وترى النوافذ التى على الواجهة وقد علتها الأصداف على طراز لوى الخامس عشر ونصب تمثال هزلى يرتدى القبعه ، وقد تخلع على القوس وامتد إلى المدخل وفى الزوايا نقوش ولوحات

زخرفية جزءها الأول ملون بالازرق والآخر بالأصفر وعلقت لوحات إلى يمين الباب وشماله وتحت القوس تحوى أسماء بعض الناسخين والعملاء . وفي الداخل ، أقيم على الدرج الحجري موقد فاخر من الحديد المطروق ، وقد علته الأتربة والبصاق والقاذورات . وتتصاعد منه رائحة قلوبه تنه . وتدوى من الداخل ، على أبواب الطبقات ، أصوات الأطفال . وتلح من الأبواب الداخلية النسوة في مآزهن والرجال في قمصانهم . أرسلت بهم البطالة إلى هذا المكان القفر يتسكعون فيه .

هذا هو منزل هافيلان في عصره الأخير .

ولما كان مسيو فيليير مكلفا بالمحافظة على مصلحة المالك . فقد زارها وعان ثلاثين متراوحانوتين مستقلين واثنين وثلاثين منافع مختلفة ، بما فيها الأسطبل حيث يودعه أحد التجار عربته ، والسطح الذى اتخذه أحد العمال محلا يخطط فيه على ما كينته : وقد عملت بكل هذا مذكرة لتنير الطريق أمام اللجنة المشكلة من مجلس بلدى المدينة لتقدير العقار . وفي حالة ما إذا اضطروا للالتجاء إلى المحاكم ، تعهد مسيو فيليير بأن يقدم المحامى والنائب ويقوم بكل ما تعوزه القضية . وقد أدب مسيو فيليير مادبة

للمسيو هافيلان أولا في بارى ثم في ميدون . وهو دائما يدعو عملاءه إلى مائدته حيث يبدى لهم أبلغ ضروب الحفاوة، وأمام الزجاجات يعرف كيف يساير الرجال . تلك الزجاجات التي تعزف كيف تفتح مغاليق قلوبهم وكيف تجذبهم إليه . وهو نفسه يعبدها ويرى فيها الحياة والمثل الأعلى . وقبل أن يتسم له الدهر كان يجلس على مائدته التي غطاها بطبقة من قطرات الشمع يكرع النيذ الأبيض ويأكل المارون المشوى . أما الآن فانه يستقبل زائريه في منزله الأنيق .

اتهى مسيو فيلير ومسيو هافيلان من شرب القهوة وقد انعكست أشعة الشمس الحمراء ، شمس المغيب ، على غرفة الطعام فأكسبتها لونا ذهبيا ، وكان رجل الأعمال المنتفخ الخدين يحجج في زائره قائلا :

دعنى أذوق هذا الكونياك يا عزيزى الجزائرى وقد بدى له لقب الجزائرى أنيقا فتبعها بكلمة :

« البيون » ، يقصد إنجلترا ثم اعتذر لأنه لا يزال روماتيكى أحسنى مسيو هافيلان الكونياك وطلب كأسا من النيذ قائلا : أرجو ألا يطول الانحراف الذى ألم بالآنسه فيلير .

نهض مسيوهاثيلان في غلظة أنجليزية وهو يتباطأ لآلم لحق
بركبته من جراء الروماتيزم . وأرسل معطفه الأصفر على
ذراعيه . وبينما كان يجتاز الحديقة قال لمضيفه :

— لى الشرف أن أطلب إليك يد أبتك الآنسة فيلير
وقد كاد الرجل الصغير يندفع فى طيش فيجيبه بالقبول
ولكن الانكليزى عاجله بأن وضع فى يده ورقة قائلا :

— ستجد فيها التقدير الحقيقى لثروتى . أرجو أن يصلنى
ردك ضمن خطاب مسجل . آه تريد أن تصحبنى مودعا .. لا
سم سار فى خطأ متشاقلة إلى المحطة .

أخذ مسيو فيلير يفكر حتى أنه دار حول الكهف الصناعى
اثنى عشرة مرة مشدوها . وقد أضاء وجهه القمر فأظهر خديه
المتفخين وبدا وجهه كأنه وجه تمثال مضحك . كان يحدث
نفسه :

— ماذا ؟ أن هذا الإنسان يدخل منزلى كالأخرين . ولقد
عاملت مائتين فى عام واحد - أنه لم يقل شيئا وقد رأى ابنتى
سته مرات ولم يفتح فمه إلا ليطلب يدها منى . آه هذا ! ولكن ..
هل تمثل هيلين هاته المهزلة ذات الشخصين ؟ ولكن .. لا ! لست

بالأب الهزلى . لست بالكاساندر : (١) أننى على اتصال بما يحدث
عندى . وعلى يقين من أن الفتاة التى لم تخاطبه أربع مرات
سترفض . عرض على بنائه ولمعت عيناه وهو يقدر العقبة التى
ستعترضه . ثم دخل القصر فمر من أمام غرفة الطعام وقرأ
الورقة التى أعطاها له مسيو هافيلان . ثم صعد إلى غرفة أخته
فوضع سيكاره على السياج الذى يحيط بالموقد وجلس كالطبيب
على رأس المضجع النائمة فيه هيلين .

— آه حسنا .. كيف الحال يا حبيبتي ؟

ولما لم يتلق جوابا أضاف :

— لقد سأل مسيو هافيلان عنك الليلة بلهجة ودية .

وتنفس مسيو فيلير عن أكلة ثقيلة وقال :

— وما رأيك فى هذا الرجل ؟

ولكنه لم يتلق جوابا أيضا . ورأى على ضوء الشمعة التى

تشتعل فى الموقد عيناها الجاحظتان . ووجهها المقطب .

وقد فطن إلى أنها عرفت مقصده فلم يربدا من مواجهتها .

(١) هذا الأسم يطلق رمزا للأب الذى يخدمه اولاده ويسخر منه الناس وهو
علم على شخصية من الشخصيات الأولى الممتازة التى وردت فى الروايات القديمة

— أن مسيو هافيلان يريدك زوجة .

فأجابت

— لا أريد زواجا . أنتى سعيدة معك

فوضع يديه على ركبتيه وتأوه من حنجرة لحمها وسداها
من المسكر ثم ما لبث أن اتخذ هيئة رجل الأعمال وقال :

— فيليت . أنك ترفضين ما أجبته اليه ؟

— آه حسنا . ماذا أجبته ؟

— لم أقل شيئا يغضبك يا أبتى . أنتى أريد أن أدعك طليقة
ولا أستعمل الحق فى أخضاعك لأرادتى . أنك تعرفين حق
المعرفة أنتى لست بقاس .

فتمتت :

— لا أنك أب صالح . ولكننى لا أريد أن أتزوج . أنك

لن ترغمنى على ذلك .

فعاد للكلام بلطف :

— أنتى أكرر ماقلته أنك مطلقة الحرية . ولكننا نستطيع
أن تناقش . أنتى والدك الذى يضر لك الحب والأخلاق
ويمكننى الآن أن أصارحك أشياء لا أشك أنك ستقدرينها .

بما أنك فتاة كبيرة كاملة . لتناقش كصاحبين : نحن نحيا حياة لا بأس بها . ولكننا لا نمتلك ما يطلقون عليه الثروة . أنتى ابن أعمالى ولقد أصبحت تعباً . تعباجدا ! ولربما تنتهى مرحلة حياتى قبل أن أشاهد قرانك . أنك فى الثانية والعشرون . واليد التى تمتد إليك اليوم ليست بمستحقة رفضك . أن هافيلان ليس شاباً . ها أنت ترين يا بنية أنتى عادل . ولكنه رجل عصرى . يتمتع بشىء كثير من اللطف . ثم أنه على ثروة عظيمة . ولما نطق بالكلمات الأخيرة ضرب جيبه الذى وضع فيه الورقة التى أعطاهها له الأنكليزى واستمر :

— أن شيطان هافيلان يقف على قمة ثروة هائلة . ضياع ، قصور ، نفائس ، ثرة عظيمة ، كل هذا ! أنه لعظيم !
فاظهرت عدم استحسانها وهزت منكبيها . عاد الوالد الى حديثه :

— لا تظنى يا ابنتى ، أنتى أريد أن أزوجك مايسمى زواج المال . كلا ! أنتى أحب سعادتك .

وهو يحبها حقاً . وقد انحدر صوته عند ذكر المحبه . قال :

— لقد أراد الله ألا أبغى فى هذا العالم إلا سعادتك . أنتى

أعرف أن هذه مسألة الشعور . ولما تزوجت بوالدتك لم أنظر إلى الثروة . أتريد أن أصارحك القول ؟ أنتى رجل خيالى ، آه ! أنتى شخص رومانتيكى . هل تعلمين ماذا كنت أفعل لو أنتى لم ألق نجاحا فى عملى ؟ أنتى لأعتزل بعيدا فى الخلاء لأنظم الأشعار . ولكن ماذا تبغى الآن ؟ لقد ضحيت نفسى الخيالية وروحي للأعمال . والآن قد أصبحت شيخا فانيا ! آه يا آنسة ! أن الحياة ليست كلها موردة فيجب أن تتعلمى خلق التضحية . أنتى أريدك أن تسعدى يابنتى . أريد أن أمنع عنك شبح البؤس والفاقة . كفى أن والدتك التعيسة قدمت نفسها قربانا على مذبح الواجب ماتت ضحية الواجب ، أسمعين ؟

مر بيده على عينيه . لقد ماتت زوجته حقا أثر مرض صدرى وسط عائلتها فى نيورت حيث أرسلها هو لقضاء بعض الأعمال . أخذ رأس أبنته بين يديه وجعل يمطرها بقبلاته ويصعد الزفرات الحارة :

— أصغى إلى أنتى أعرفك جيدا يا ليلي يجب أن تتوفر لك السعادة والعظمة . أن هذه غلظتى لقد كنت طهاعاً لم أجد عندى أعظم وأجمل من هذا لأقدمه لك . لقد ربيتك للثروة أنك لم

تتعلّى لا الخدمه ولا الحساب فاذا لم تصيرى غنية تكونين أتعس
نساء العالم وسيقولون أنتى مصدر تعاستك أية مسئولية يتحملها
أيك المسكين! أن هذا يقضى على! ولكن.. لقد أتى الثراء..
هاهو ذا يقرع بابك. ماذا؟ أيتها الصغيرة. فلندعه يدخل فكرى
جيداً؟ أنتى أحبك. أعجب بك وأقدر ما يلائمك! إن الحب لن
يخدعنى. دعينى أفعّل.

سألت هيلين بفتور عما إذا كان مسيو هافيلان يقيم باستمرار
فى پارى. فصاح والدها الذى لا يعرف عن ذلك شيئاً! أجل.
بالتأكيد!

وأضاف بان أخلاق صهره المقبل حميدة. وشعوره راق.
ثم طرق الباب الأخير فأخذ يتحدث عن القصور والعربات
والحلى.

أخذت هيلين فى استعراض خواطرها. لقد مضى رينيه
لسفر طويل الأمد دون أن يتفوه بكلمة عن حبه. أو عن أمه.
لو كان قال أنه سيعود! أو ترك تذكاراً! ولكن شيئاً من ذلك
لم يكن. وهذا يعنى أنه لا يحبها. أجل انه يحب كتبه وأبحاثه
وضفادعه. لقد كانا يتحدثان ولكن محض نظريات. هذا كل

ما هنا لك ولكن ما يقوله لها هو عين ما يقوله لغيرها ! فهل
يجبها جبا صامتا خفيا كما ظنت ذلك مرارا ؟ إذا فستنتقم من
هربه . ثم ان والدها محق فيما قاله من أنها لم تخلق إلا للغنى
والأبهة . . ولكنها تعود فتفكر كيف ستقاوم ؟ وأى تعب ينالها
من هذا النضال .

لقد كانت هيلين من النفوس التي تلين للفشل اذا ما فاجأها
في المرحلة الأولى .

ها قد عرض لها أخيرا الحب الجديد . . حب الأجنبي
الذي طاف العالم خمس وعشرين عاما ، وهي تعلم تماما كم هو
متين هذا الحب ، وهو الذي أوحى لهذا الثرى الذي ، بعد ثلاثة
أشهر كلها زيارات يطلب يدها في سكون مادا لها لقبه و ثروته .

هذا الرجل الجديد ، ألا يمكن أن تحبه ؟

رفعت رأسها وتمتمت

— سنى .

٢

من الحق أن هيلين فيليرولدت ونشأت لتكون ثرية . وهي لا تزال تذكر للطفولة تلك الجوارب المثقوبة ، وما كان يلحق قدميها من البرد . وقطع اللحم النتنه التي كانت تبغضها . والثقوب المنتشرة تحت الابواب . ثم وجه والدتها الطويل في ليالى الشتاء ، أنها تذكر أمها في أطوارها المختلفة حينما كانت تزأر وهي حانقة ثم وهي حزينة تتعذب .

خرجا ذات مرة للتنزه . أين ذلك ؟ ومتى حدث ؟ هذا ما لا تذكره هيلين . انما يعلق بذهنها أنها كانت جد حديثة السن . وفي المساء أمرتها والدتها أن تنام ثم خلعت قميصها وغسلته في الحوض . ولقد طربت حينذاك لمنظر والدتها وهي تتدثر بشالها وتعج أيديها بالصابون . ولكنها حزنت كثيرا حين اكتشفت أخيرا أن والدتها لم تفعل ذلك إلا لفقرها المدقع .

ولقد كانت ، منذ حداثتها ، مخلوقة لطيفة المشاعر تحس وتتألم ، وكم أعطت لرفيقاتها الفقيرات قطع الحلوى وملابس قديمة لعرائسهن اللاتي يلعبن بها . وكانت تقنى عصفورا

أودعته قفصاً تملأه على صاحبه بقطع السكر والحلوى . هذا العصفور الذى بقدر ما أفرحها . سبب لها هموماً وآلاماً لا تطاق . لقد فعلت كما جاء فى دواوين الشعر : « لقد شيد برا كسو مقبرة لصرصوره الذى عرف منه بان الانسان مصيره الفناء » وهكذا حزنت هيلين على عصفورها . زمنا طويلا . أما والدتها . فلما كانت ترزح تحت أعباء البؤس ، والضيق ، وخلو أيدى زوجها من المال ، فقد خلت من هته العواطف ، وهذا الهدوء والاطمئنان إلى الحياة . بل لقد خلت من كل عاطفة تحملها الأم لأبنائها الصغار . وتجردت من المجاملات والمداعبات التى تقابل بها الأمهات هته النفوس الصغيرة المظلمة التى خلفوها إلى العالم . وهيلين فى طفولتها جد قديرة على تمييز شتى المعاملات الطيب منها والردىء . ذات يوم صاحت أمها فجأة : - أن هذه الفتاة ستميتى . اتى لا أعرف ما الذى جنيته فى حق الآله حتى يرزقنى بهذا الوحش المفترس

ثم أزدبت ، وانفعلت فأخذت تصعد الزفرات الحارة وتدفع بالابواب ، وأمام هته الثورة ، انسلت هيلين المسكينة إلى مضجعها فى هدوء . فنامت ودموعها تسح على خديها . وفى

الصباح أفاقت على صوت القبلات ، والمداعبات ، والاغنية التي
نظمتها لها والدتها .

أما والدها فيلين ترى فيه الظرف والعظمة . وكم أعجبت
بمنكيه العريضين وصديرته البيضاء فهوأله بالنسبة لأبنته ، ولكنه
على طريقة الألهة ، قليل الظهور ، يغيب يومه ويعود متأخرا

كان يصحبها أحيانا في عربة إلى الحديقة ، وإلى المقاهي
حيث يقدم لها حلو الشراب . وكانت تمد طرف لسانها في كوبة
أيها وينبسط وجهها عند ماتذوق مرارة الشراب الأخضر وكان
هذا من دواعي سرورها . ولكن لم يكن هذا السرور ليدوم
طويلا فان الأله يعود إلى الاختفاء . فتجلس إلى جانب والدتها
تفكر في والدها المحبوب . وهي تستعرض صديرته البيضاء التي
تخطف بالبصر وكانت تميل إلى الكسل والبطالة . ولم تكن
ما دام فيلير لتلتفت لبطالة فتاتها وخمولها . وقد طبعت الاخيرة
على حب الأناقة والابهة وكان ذوقها في الملابس وترتيب المائدة
محل أعجاب مسيو فيلير .

وفي السابعة من عمرها وضعها والدها تحت أشرف سيدات
كالفير حيث التحقت بنزلهم في أوتوى . وقد ارتاحت كثيرا

لهته الملابس البيضاء ، ووجوه الأمهات الناصعة البياض ،
والسكون الذى يشمل المنزل ، وطمانينة الحياة العادية .

وفى يوم قيل لها أن والدتها التى سافرت من مدة لن تجود
قط . وقد أفزعها هاته العبارة فانفعلت واجهشت بالبكاء . وقد
ألبسوها رداء أسود واخرجوها إلى الحديقة . وقد بدت لها
الحديقة قطر واسع ملىء بالأسرار ، والكائنات الحية ، ومغنى
جميل . ومهد المعجزات .

وكان والدها يزورها كل أسبوع حاملا لها الحلوى . وهو
يمتلئ حبا و إعجابا بها . وقد أنهكه التعب ومل العمل طوال
الأسبوع . فهو يرى كل يوم خميس ، وقد نظم شعره ، وحلق
ذقنه ، ورتب ثيابه ، فى مطبخ سيدات كالقير . وقد بدى منظره
سعيدا وخديه الأبيضان ذو أتساق لطيف . فهو محل تقدير
و إعجاب الأم سانت جنيف مديرة نزل أوتوى . كذا كانت
تحلم به اثنتان من كبار سيدات المنزل أثناء سباتهن .

أما هيلين فهى تجل والدها وتعجب به أيما إعجاب . وفى
الحق كان مسيو فيلير جديرا بالبطولة وفى يوم خلت فيه جيوبه
من النقود . استعار من صديق له مجموعة أشعار الفريد دى

موسيه ، وقد رآها على الطاولة ، قائلا : « أنتى أريد أن أقرأها
لمائة مرة ، ثم ذهب يبيعها فى الشوارع ليشتري قفازا ، جلس
يفك أزراره دون عناية فى اليوم التالى أمام الأخت الراهبة
المعكفة بالاتصال بالاهالى . أما الحلوى التى يحملها إلى ابنته
ولصديقاته فى كل زيارة فهى من محل ممتاز ، موضوعة فى علب
فاخرة تدل على ذوق سليم . وقد أعجبت الأم سانت جنثيف
واستشارته يوما فى مشكل طارىء . وقد بذل فى سبيل ذلك
وقته ومهارته وذكائه . وكما اهتز زهوا و إعجابا وترنح خيلاء وهو
يقلب ملفات القضايا أمام الأم المحترمه . ويبل أصبعه من
طرف لسانه فى شىء من الوقار والتهيب . ويندفع يشرح للام
ماشكل عليها فهمه يبحث ويحلل ويدافع ويناقش . كل هذا
والسيدة الجميلة ذات الرداء الأبيض تنصت فى امتثال ، وقد
ارتخت عيناها ، وتدلت أكمام ثيابها على يديها . لا تتكلم إلا بصوت
منخفض . الامر الذى لم يصادفه مسيو فيلير طول حياته بين
زبائنه كثيرى الضوضاء والجلبة .

وكانت الام سانت جنثيف تتخلق بخلق العصور الماضية
فقد أبى ظرفها أن تشك فيما إذا كان مسيو فيلير يبغي نقودا .

لقد قدم إلى هته الجمعية الدينيه مبالغ كثيرة . وكم داخله السرور حينما سمع يوم أحد الوعظ المسائى فى إحدى الكنائس الصغيرة . ثم اكتشف ابنته مكبة على كتاب الكنيسة بين حفيدة مستشار قضائى وابنة عم أمير ، وبعد أن أنعم النظر إلى شعرها الجميل ومنكبيها اللطيفين ، لمع زجاج نظارته ، وتمخط كما يفعل فى الممثل بعد المواقف العنيفة

لقد كلفته أعمال هته الجمعية بعض المال ولكنها ربطته بعلاقات مفيدة . وقد حدث نفسه :

— لقد أكتسبت شهرة كبيرة وذاع صيتى .

وقد أكتسبت صديريته لونا جديدا . وزهت على صدره آثار تلك المادة التى يلصقها بها كلما عن له أن يتمخط !
نمت هيلين وازدادت حسنا وبهاء . واكتسب شعرها لونا ذهبيا بعد أن ظل ردحا من الزمن يعج بلون باهت كهذا الذى كان لأمها . فاصبحت فائقة الجمال ، غضة الأهاب ، رائعا البهاء تفيض نفسها الشاعرية عطفًا وحنانا وقد اتخذت لها صديقا تدعى سيسيل تزورها فى الأيام التى يسمح لها بالخروج فيها وهذه الصديقة هى ابنة لرجل يشتغل فى القطع ، وكانت هذا

المخلوقة الصغيرة الثرية في السادسة عشر . تبدو عليها مظاهر الطفولة والوجاهة ، ووداعة الأخلق . ولكنها تحمل نفس سيدة في الثلاثين من عمرها الشيء الذي جعل لها مركزا ممتازا بين صديقاتها .

ولقد اقتادتها يوما عند والدها ، في ياسى ، في غرفة أنيقة ملأى بالطنافس حيث قدمت لها الحلوى . ولقد بهرت عيناها هته الطنافس . ولكنها ما كادت تخرج حتى بدى لها كل ما رآته تافها لا قيمة له .

وقد استسلمت لأحلام لذينة . وأمانى طيبة . وأصاها مرض معدى أقعدها عن النهوض . فهي غارقة في بحر زاخر بالأحلام تتشهى في أن يكون لها غرفة زرقاء تقرأ فيها القصص وهي مضطجعة في مقعد طويل .

وفي ذات مساء سمع صوت ينادى : النار ! فذعر كل من في المنزل وخرجوا مهرولين البعض في ملابسهم الداخلية ، والآخرون مندثرين بالأغطية ، الصغار منهم يتبعون الكبار وهم يتعثرون في قصصهم الليلية الطويلة . وسرعان ما تبين كذب الخبر وأن النار لم تشتعل إلا في رأس هته المخبولة صاحبة هذه

الأكذوبة . أما الأم سانت جنيفيف فقد وبخت هذا الجمع الحاشد بقدر ما أثنت على هيلين التي لم تترك مضجعها . والواقع أنها لم تكن لتغادر مضجعها لأجل مثل هذه الأخبار . بل كانت تحلم في هذا الوقت ، في الحلى ، والملابس ، والخيول ، والنزهة ، والقوارب ، ثم تعود فتسح الدموع لذكرى والدها .

وقد خرجت من هذا المنزل وهي تحسن إداء التحية في غرفة الاستقبال . وتجد العزف على البيانو . وقد صار منزل والدها لا تقابها . وأصبحت تملك غرفة زرقاء . وقد لاقت من والدها عطفًا وحنانًا . وكان يصحبها إلى الملاهى حيث تتناول عشاءها بعد انتهاء التمثيل . وقد عرفت أن هذا الأب الظريف هو غير ذلك الذى كانت تراه في نزل سيدات كالثير حيث تعلبت آداب المعاشرة والحديث والذوق السليم

وقد جذب جمالها جمعًا من الناس كانوا يجتمعون عند والدها ولكن أحدا لم يفكر في طلب يدها بل أنها لم ترى بينهم من هو كفو لأن يكون بعلا لها إلى أن ظهر أخيرا شاب حاز أعجابها . هذا الشاب هو رينيه لونجمار الجراح الملحق بالجيش . الذى أوفده والده الوسيط التجارى الشيخ فى أردن لقضاء بعض

الأعمال عند مسيو فيليردى سيساك وقد قطن شارع نيف - دى
بتيت شامب

وبالرغم من امتلاء جسمه القوى ، ووجهه الممتلئ صحة ،
فانه لم يك جميلا . وكان حديثه على شئ من الخشونة والأبهام .
ولكن هيلين أحبت رؤياه وسرت لحديثه . وكان يتحدث إليها
عن الدين والاخلاق ملقيا إليها بنظريات غريبة ، كانت تسر
منها ولكنها لا تفهم منها شيئا !

وقد قال لها يوما :

— أن الانسان جاء من سلالة القرودة !

ولما شدهت واحتجت أخذ يؤيد نظريته ببراهين كثيرة
معقدة ومضحكة . وقد اصطحب لونجمار بعض اصدقائه .
وتكونت هيئة من الشبان العلماء عند هذا الطيب القلب مسيو
فيلير الذى لم يعره أى اهتمام

وقد جاهر الجراح ببعض الآراء منها :

أما الفضيلة عجز .

البسالة والقداسة هما نتيجة احتقان فى المخ . الفالج العام
ينشأ وحده الرجال العظام . الآلهة هم صفات .

وقد صاحت به :

— حذار !

ولكنها لم تحجم عن سماع حديثه والأعجاب بهته الحرية والصراحة يدفعها إلى ذلك عامل خفى . حتى أنه في المساء بين قذح الشاي وزجاجة الكيرش كان يلقي عليها دروسه العظيمة وأحاديثه عن الطبيعة وغرائبها وأهوالها .

ولكن كان يرتفع من الردهه المجاورة أصوات أخرى عن القضايا التجارية وأعمال المناقصات والمزايدات !

وهنا يبدو لها شبح عظيم يتقدم في هدوء تملو وجهه حمرة قانية . تبدو عليه علامات النبل والعظمة . هذا هو مسيو هاويلان وهيلين تقدره وتعلم أنه سليل بيت عظيم ، وريبب المجد والعظمة وتلح منه آيات الحب ولو أنه لم يفتحها بل لم يخاطبها طيلة حياته أما لونيجار فهو في كل محادثاته ساذج يحترمها ويعجب بها سرا . ويحاول أن يدخل السرور إلى قلبها بأحاديثه فهو دائماً يحافظ على الظهور أمامها بمظهر الرشاقة في الحديث والاستهواء بنكاته .. كان يشعر في أغلب الأحيان بالثبات يحكم عاطفته لاعتياده على النظام العسكري ولأنه يعرف كيف يستعمل

شجاعته الاديية . أنه يحب من يحدثها ويحس قلبه يخفق ولكنه لا يتحرك بل كان أحيانا ينجس لسانه في حلقه ..
وهو لا يمتلك إلا مرتبه وهو يعلم أن الآنسه فيلير لم تكن ذات ثراء وافر ..

ثم هي تعطف عليه وتذكره حتى هذا اليوم الذى جاء مودعا فيه . وكم أثر فى نفسها ذلك الفراق . وكم أقض عليها مضجعها ذكراه .

٣

كان منزل البوت دى مولان قد سقط بناؤه وكسر المعول
الوجه الرمى الذى لون إحدى خديه بلون أزرق والآخر بلون
أصفر إلى قطع صغيرة . واختفت الغرفة الصغيرة التى قبض
فيها على الشيخ دافيد أوار الذى قدم إلى محكمة الثوار ثم إلى
المقصلة . وبعد مدة وجيزة كانت سحب التراب التى تهب إلى
الشوارع المجاورة تحمل معها آثاره العمارة القديمة فتساعد
أتربتها ذى الراححة الخائفة إلى حناجر الرجال والجياد التى تمر من
هنالك . والآن لا يعرف سكانه ، وبينهم صباغ وصانع مفاتيح ،
مكانه الحقيقى .

زادت أملاك مسيو فيلير دى سيساك فى ميدون ، وقد زاد
من حجم الأعمدة الحديدية التى كانت تكون الباب العمومى
للقصر المجاور وضم إليه مساحات الفضاء المجاور . حيث بنى عليها
قصرًا صغيرًا ذو شرفات عالية . فى أسفلها فتحات عليها نقوش
بديعة . وأطلق على الجميع - معنى سيساك - وفى ذات يوم علق
على الباب الكبير لوحة كتب عليها أن المنزل والقصر وما يتبعهما
للبيع أو للايجار .

ومرت الفصول الأربعة واللوحه ترقص وسط الرياح وأثر
فيها أشعة الشمس وهطول المطر . فاصفر لونها وتكسر شكلها .
أخيرا ، في أيام الربيع ، وقد انتشر سكون رهيب على
ميدون ، دخل القصر الصغير رجال متقبعون بقبعات من الجلد
يسرون بخطى ثقيلة . قد نابت أكتافهم تحت البنادق ، هؤلاء هم
جند الألمان . فاشعلوا النار في الموقد الكبير والأرضية المدهونة
بالزيت . وقد تشقق السقف وتصدع البنيان .

وجاء الشتاء العظيم . وغزيت فرنسا ، ثم حوصرت پاری
وفي هذه المحنة العظيمة ، محنة شعب بأسره ، أفل حظ مسيوفيلير
واتتهت ثروته إلى الفناء . ولما أن تعطلت حركة العمل ، وتعطلت
محكمة السين في عهد وزارة شيغاندى ، وجاء ذلك ضربة قاضية
على مكتب الأعمال الواقع في شارع نيف - دى - بتيت شامپ
وذهب مسيوفيلير الذى تجهم له الدهر مرة ثانية يحمل ردينجوناته
القدره وعويناته ذات الأصداف . ولم يعد يصبغ ذقنه ، ذهب
إلى محلات المقامرة حيث غامر بنقوده الباقية فخرها .

ومنذ أن غادرته أبنته وهو يتلقى فتيات جميلات ولا تلتقى
به فى ممثل الفولى برچير إلا وراه متأبطا ذراع امرأة . وفى أثناء

حصار پارى أسس شركة للتأمين على الحياة «عنفاء»^(١) المرسى
الاهلى، ولكن أحدا لم يعرها أى اهتمام .

تزوجت هيلين وقامت بسياسة استغرقت أربعة أعوام .
فكانت تلك الحياة بنعيمها داعية إلى سرورها . سم أن عظمتها ،
جمالها ، أبتها ، وملابسها الفاخرة ، كل ذلك كان داعيا للأعجاب
بها أينما حلت ، فى الفنادق والملاهى حيث كانت ترسم على
وجهها وفى حركاتها مظاهر الأرسوقراطية . وقد خفق قلبها بحب
زوجها ، ولكنه كان مملا . فهو يرى ويسمع ويتكلم بمظهر
واحد . لم يكن ليميز بين الأشياء الكبيرة والصغيرة . فكل شيء
لابد من تقديره . وقد ظل مرة يشاجرها زهاء ساعتين من أجل
ثلاث فرنكات لم يعرف أين صرفتهم .. فهو يصرف الكثير
ويدقق على القليل . والكرم عنده يتخذ مظهر البخل . ولقد
أباح لها أن تتصرف فى أيراده وتبدد ما تشاء على شريطة أن
تسد كل ما يطلب منها وتودى كل الواجبات . فتصرف تلك

(١) امم لطار ومى فريد فى نومه . عاش قرونا عدة ومات على المودة شمه
بش من نهره

حياتها فى حساب السنثيات مع خدم الفنادق وكانت له خطة لا يضع معها نصف سنتيم هباء .

ومن جهة أخرى فهو يدير حركة قياس الأبعاد .. إرتفاع ميزان الحرارة .. ودرجات الميزان الجوى . أتجاه الرياح .. والسحب حتى أنه كعب مساحة فضاء فرجينيا فى نابل .

وهو يحب النظام ولكنه يحبس نفسه عن الألم عند مايرى صحيفة تظل مفتوحة وملقاة على مقعد طويل . وقد أغضب هيلين لأنه رآها أكثر من عشرين مرة فى اليوم ممسكة بكتابها أو بأدوات التطريز . وقد تذكرت هيلين والدها الذى كثيرا مانسى سكاثة على أذرعة مقاعد السيدات ! ولكن لم يكن هذا شيئا هاما . إنما أصدق الألم الذى ترزح تحت عبأه هو حياتها مع رجل دائب التفكير . وهو لا يعرف كيف يعبر عن شعوره ولا كيف يدخل السرور إلى نفس أخرى . فنذ أن تزوجها ولم يفتح فمه بغير الأوامر . وأنتك لتقدر ألم زوجة شابة عندما يكون زوجها غير قادر على إدخال السرور إلى قلبها . حقا أن قلبه يحمل لها شيئا وافرأ من الحب والعطف ولكن حبه شبيه بقطرة من قطرات المطر الرفيع . لا يدركها بصر ولا تسمعها

أذن . لا تريد أن تنقطع ، تنفذ إلى الداخل وتسبب بردا خفيفا
وبذا تشعر بوجودها

ويلحق بالسيد هاثيلان خادم قد طاف معه العالم مرتين .
وهما لا يفترقان البتة عرف السيد خادمه الفرنسى جرول شابا
فى أفرانش ولم يكن هذا الأخير جميلا ، ذا شعر أحمر وعينان
زرقاوان تشعان شكا . يعرج فى سيره ولكنه كان نظيفا يودى
عمله بهمة نادرة . تزوج من امرأة فى خدمة المسيو هاثيلان . وقد
تركوها فى پارى حيث تقوم بحراسة المنزل المبنى حديثا فى شارع
«لاتور - موبورج»

ويشتغل مسيو هاثيلان بالكيماء وساعده الأيمن جرول .
وكما أنه يتعاطى الأدوية يوميا . فأن جرول يدير صيدليته المتنقلة
كان هذا الجرول حاد الذكاء يحضر الأدوية بنظام ثم هو يصلح
كل ما يتلف فى المنزل . ولقد أبدى مهارة فى عمل المفاتيح . له
بدان مخيفتان ذوى شكل غريب . وسابتان مفزعتان . وهذان
اليدان تقومان بأدق الأعمال والطفها . ومع أنه ذو مهارة فائقة
فى الفنون الآلية فإنه لا يجيد الكتابة بشكل يقرأ . وقد اخترع
حروف هجاء خاصة لا يعرفها سواه . ولا يمكن التوصل بأى

حال إلى مميز حرف أو عدد في الورقة التي كتب عليها حساباته بخط هو غاية الرداءة .

وكانت كتاباته الرمزية المخيفة ، ومخالبه البشعة ، ومشيته العرجاء ، ورائحة الأدوية التي تهب من جسمه الذي أبى الأكسيد إلا أن يترك عليه آثاره ، كل هذا دعى لأن تخافه الخدم والطهارة ، الذين سموه كلوشون - كما يخافون الشيطان ، وقد حكموا عليه بأنه قادر على عمل كل شيء . ولكن جرول كان بعيدا عن أن يرتكب أى خطأ .

أما هيلين ، التي كان يمجها في الباطن فقد خدعتها مظهره ولكنها سريرا ما كشفت أنه لا يترك فرصة دون الايقاع بينها وبين زوجها . وقد أحاطها بشيء من المظاهر الخداعة . فكان خادمها الأمين الذي لا يبرحها لحظة واحدة

ولم يكن سوء ظن سيدته داعيا لخوفه فهو يعلم أن ثقة سيده فيه عظيمة وأن هذا الأخير لا يقصيه عنه بهذه السهولة ولسبب تافه . أن علاقة مسيو هافيلان بخادمه جرول ترجع إلى عشرين عاما . حينما كانا يبحثان سويا عن صامويل أوار .

وإليك هته القصة :

كان مسيو هاڤيلان لا يزال حديث السن حينما سمع عن موت الشيخ دافيد أوار الذي ذهبت المصلحة برأسه عام ١٧٩٤ وقد كان هذا الباسل مثال التضحية والوفاء ، فإنه بقى على عهده لمخدوميه . وضحي حياته فى سبيل حفظ ثروتهم التى ولوه أمينا عليها . وقد أعجب وريث هاڤيلان بهذه المروءة وأكبر فيه البسالة والوفاء فلما تولى ثروته بنفسه أخذ يبحث عما إذا كان هذا الرجل قد ترك سبيلا له . فعلم أن ولده الصغير ويدعى أندرو أوار يشتغل بالتجارة فى كالكوتا . وفى الحق كان أندرو أوار متأهلا بسيدة هندية وقد اشترك مع رجل براهمى لتأسيس شركة تجارية تحت اسم : « أندرو أوار ، وليسا ليسالى وشركاهم ،

أبحر مسيو هاڤيلان مع جروول ليقابل أندرو فى كلكتا ويقول له : أن جدك قد ضحى نفسه فى خدمتى وكان فى ذلك مثال الشرف والمروءة . فاسمح لى أن أصالحك . وألا يمكننى أن أحوز شرف خدمتك ، فأودى لك أى شىء تطلب ؟ ، ولكن . لما وصل إلى كلكتا ، فى عام ١٨٤٩ ، علم أن شركة أندرو أوار وليسا ليسالى وشركاهم ، قد انحلت بموت مسيو أندرو الذى قضى عام ١٨٤٨ - ضحية الكوليرا تاركا زوجته وابنه صامويل

الذى لم يتعد الرابعة . ولما لم تكن مادام أندرو بذات ثراء فقد تركت المدينة مع ولدها الصغير . ولم يتمكن مسيو هاثيلان من ترسم آثارها . ولكنه علم أن ليسا ليسالى فى جزيرة بوربون . فذهب إليها حيث وجد البراهمى يعطى دروسا فى الإنجليزية لأولاد حاكم المستعمرة . وقد قال السيد ليسا ليسالى للمسيو هاثيلان أن أرملة أندرو أوار قد اصطحبت ولدها إلى أخيها مسيو جونسون أحد ضباط الملك السابقين .

وقد انتهت أبحاثه عند هذا الحد . وبلغ صامويل أوار الآن سبعة وعشرين عاما . وفى كل أسبوع كانت التيمس تنشر أعلانا يدعوهُ أن يعطى عنوانه للمسيو مارتن هاثيلان فى پارى ، ولكن صامويل إوار لم يبد أى إشارة تدل على بقاءه على قيد الحياة . وقد والى مسيو هاثيلان أبحاثه منذ خمس وعشرين عاما دون أى ملل بل واصل بحثه يوما بعد يوم وكان يشعر بأن هذا واجبا ، يتناوله كل صباح كما يتناول النجار فارته ويساعده فى ذلك جرول .

وقد حضر كثيرون أمام مسيو هاثيلان وادعى كلا منهم أنه صامويل أوار بن أندرو المتوفى ولكن كان يتضح كذبهم .

ساعت صحة مسيو هائيللا فى خريف سنة ١٨٧١ وأصابه
رق ودوار. وقد حدث فى أحد أيام الشتاء الأولى، وقد أقاموا
فى نيس، فى معنى أوليفير - أن جلست هيلين فى الردهة تقرأ
قصة ولكنها رأت زوجها داخلا فما لبثت أن صاحت خائفة :
— عينك، أنظر إليهما، هناك، فى المرأة!

لقد تحولت عينا مسيو هائيلان الزرقاوان إلى سوداوان
وانطبق فه، وغرب منظره .. ثم تتم :
— سيأتى، سام، سام أوار .

٤

ذهبوا ليقضوا ختام الشتاء في پاری . وكان فناء المنزل ينعص
بالصناديق والحقائب . ووقفت السيدة جروول تجيل نظرها
اليأس . وقد ارتدت ثوبا هنديا ، وأحيط وجهها بهالة من
البخار ، وتدثرت بحرمة . وهي تضع بطاقات الطرود كل في
مكانه منفذة في ذلك أوامر الوصيفة التي وقفت تلقيها لها من
طرف شفتها في حين تلتفت وتلقى بأوامرها إلى هؤلاء الذين
يرعون الجياد .

رمت هيلين بمعطف السفر إلى مقعد . فأخذه مسيوهاثيلان
وأطبقه بعناية ولم تطق صبرا فأخذت تعزف النشيد التركي على
زجاج النافذة . وبدت قبة الأنفاليد لامعة تحت سماء ملبدة
بالضباب . واكتسبت الأشياء المجاورة لونا أخضر . وهناشعرت
هيلين بملل فدخلت إلى غرفتها .

أعلن جروول قدوم مسيو فيليردى سيساك .. أتى رجل الأعمال
مسرعاً ليحي صهره ويقبل ابنته . وكانت ملابسه مقفلة بالأزار
حتى عنقة . أما قبعتها التي حملت آثار التكسير ، فلقد عصت عن

أن تخضع لكي النار، فاستعاض عن ذلك بيلها بالماء. وقد تحايل على شعره الأثيت الثائر فثناه مرة أخرى! أما حذاء مسيو فيلير فقد كانت كعوبه تكونان شكلا منحرفا ويميلان إلى ناحية دون أخرى حتى أنه أصبح مجبرا على السير كعصفور الكناري لكي يمكنه أن يهتدى إلى خط عمودي.

لم يصفح مسيو هاغيلان ضيفه مسيو فيلير وكم آلمت الأول كلمات الأخير، عزيزي الجزائري، صهرى العظيم...، وأخذ يتكلم عن أعماله وعن الدهر قد جهم له وجهه. ولما لم يسأله مسيو هاغيلان عن أعماله واين كان. صاح: — وعلى ذكرى هذا، لا اخفى عنك أنني اجتزت أوقاتا عصيبة. وكأفحت ما يمكن أن يسموه أزمة.

لم يمكنه أن يخفى عن مسيو هاغيلان مصائبه. وقد تتبعه أربعة أعوام في طلب المال. أرسل اليه يطلب مالا بالمنطاد، ثم بواسطة تاجر طيور، وبالكتابة في جريدة الديلي تلغراف. وقد أقتنع مسيو هاغيلان في أول مرة. ولكنه بعد ذلك لم يكن ليغنى بالرد عليه. وقد توجه مسيو فيلير إلى مسيو س. سيمسوز المالى بشارع النصر واستعمل أسم صهره المحترم والمحجوب هنالك

ليقترض مبلغا من المال . وهذا ما جعل مسيو هاؤيلان يحنق عليه
وأمام هذا السكون لم يربداً من أن يصارح صهره بغيته .
فقال أنه يشتغل بمشروع خطير .

وإذا ما فتح هذا الباب حتى ضرب نخذه بيديه وتنفس
طويلاً ثم عاد إلى حديثه وقد صوب إلى الطنف نظرة ناپليونية !
— إن هذا المشروع سيجيء في وقت الحاجة إليه . فهو عبارة
عن مصرف للعمال مؤسس على قواعد وأنظمة حديثة . في هذا
العصر الذي ابتدأت طبقات العمال تحس حاجتها إلى الاقتصاد .
إن هذا المصرف سينبه العمال إلى الخطر الذي يهدد المجتمع من
جاء إسرافهم . سوف يبعث في الطبقات الدنيا ، طبقات المياومة ،
روح الاقتصاد وهذا ما حدى بالحكومة السابقة أن تدعو إلى
تأسيس مصلحة من هذا النوع . يجب أن نبدأ .

في هته اللحظة رأى مسيو فيلير دى سيساك بريق قبعته
الاثريية في الشمس التي شأت الطبيعة ألا تقع إلا على قبعته في
حين خلت الردهة منه بل كل المنزل . أضاف بنشاط - ولنبدأ
سريعا - ثم سأل بعد ذلك إذا كان مسيو هاؤيلان يود أن يعرف
شيئا من قوانين مصرف العمال ؟

فأجاب الأخير :- كلا !

كان مسيو فيليير يريد أن يعطى محدثه فكرة عامة عن نظام المصرف ، وقد ظن أن صهره العظيم سوف يعطيه نصائح غالية .
وأخيرا لماذا لا يصارحه . أن هذا العمل في حاجة إلى رؤوس أموال كبيرة . وهو يود أن يهرع مسيو هاثيلان ليكون من أوائل المساهمين في مصرف العمال .

إلتزم السكون وقرع مسيو هاثيلان الجرس ينادى خادمه الذى جاء يعرج . قال له .

— جرول . أطفأ هذا السيكار .

كان هذا سيكارا حقيرا ثمنه صولدين في النزع الأخير ، وضعه مسيو فيليير دى سيساك عند قدومه على حافة طنف .

ثم واجه مسيو هاثيلان محدثه مسيو فيليير وقال :

— لن أسديك نصحا لأنك لاتعرنى سمعك . ولن أعطيك مالا لأنك لاترده . أنك لست رجلا ظريفا . أرجو ألا أراك هنا مرة ثانية ، هذا وتستطيع أن ترى ابنتك وقتما تريد . ثم خرج . كانت هذه صفقة مؤلمة للمسيو فيليير الذى شعر بانتهاء حياته

ولكنه وجد لديه الشجاعة الكافية لأن يضم إليه ابنته وأن يلقى إليها بترهاته . وقد استقبلته هي بحنان الأطفال .

أن في أخلاق هذا الرجل شيء من اللين والتساهل شبيه بكسل ابنته . وبنظرة واحدة تلقىها امرأة ، رأت هيلين قيص والدها العتيق . الذى انتثرت خيوطه عند الأطراف ، وسترته التى ابيض لونها . وقبعته التعسة وقذارة هيأته ..

وكأنه فهم ما يجول فى خاطرها ، فابتسم المسكين واعتذر لأنه أهمل قيافته لما تقدم فى السن . سألتها عما إذا كانت سعيدة . ونصحها أن تحب زوجها . ثم ، بعد أن قبلها بحنان ، نزل الدرج بخفة وقد أعشت عيناه ، واستقامت ذقنه ، وغاصت رأسه تحت قبعته الخالدة ..

وقد لاح لهيلين أن والدها غضب من زوجها .. فتسهم عقلها نحو الأخير بأفكار سيئة مجرد التلبيح الذى أمكنها أن تفهم منه دون أن تتلقى شرحا ..

ولما كانت نفسها تفيض عطفًا وحنانًا ، فقد وجهت ذلك نحو ابن أخت زوجها جورج الذى كان جميلًا ظريفًا .. ولد جورج هايفلان فى أترانش ونشأ على الديانة الكاثوليكية

وسط المستعمرة الانكليزية الصغيرة القائمة في هذه المدينة وقد فقد أبويه وألحقه عمه - الوصى عليه بالقسم الخارجى بكلي ستانسيلاس . وكانت تبدى له هيلين أظرف الملاحظات وأغيا النصائح ليصير أسمى مخلوق .

وقد دعتة يترك فروضه هذا المساء ليذهب إلى الممثل .

ولقد أصبحت أيامها مريرة ، واعتراها الملل ، فهى تبكى وتتمنى أن تعيش ولو في أحقر كوخ بجانب والدها .

هرعت خفية ، إلى رجل الاعمال ، الذى يقطن فى شارع روما فى الطابق الرابع من منزل حديث البناء ، وقد انتعشت من هذا الشوط الذى قطعتة فى العربة ، ولكنها كانت ترتجف وأرخت نقابها كأنها ذاهبة إلى موعد غرامى !

وكان أثاث والدها أشبه شىء بأثاث طفل صغير . فترى غلابينه هنا وهناك ، وسط الأوراق المبعثرة على المناضد . وانعد النظام فى هته الغرفة . قبلت هيلين والدها على خديه ، ودارت بنظرها فى زاوية الغرفة ، وحينما لمحت بعض أشياء لسيدة منهم مظلة وبعض أزهار البنفسج ، تظاهرت بأنها لم تر شيئاً . وضمت شفيتها حذراً من الضحك ولكن عيناها كانت تضحك . جلس

والدها أمامها لا ينطق من الحب والأعجاب .
عبثت بالأوراق التي أمامها ، وأكلت من الحلوى ماشاءت ،
وشربت وضحكت ثم تأهبت للرحيل
أصلح الوالد طاقته التي اختل نظامها من التقييل ثم همس
في أذنها :

— أحيي زوجك ، أحييه من كل قلبك

وما أن استوت في العربة ، حتى تخيلت زوجها أمامها مضجعاً
وقد بدت عيناه الباهتتان ، وخداه المشربان حمرة ، واللذان
يشبهان قطعة اللحم التي لم يتقن طهيها ، وقد ابتسمت دلالة على
الاستهجان ، وهنا تعود بها الذاكرة الى صورة قديمة في طوايا
نفسها ، في ذلك العالم القديم المليء بذكرياته ،
ها هو ذا وجه كاد أن يصبح منسياً . . ولكنه محبوب .

عزيز لديها . . وجه غائب لم يؤوب ؟ أنه مائل في ذاكرتها ،
لقد ذهب بعيدا ، بعيدا جدا ، دون أن يؤوب البتة ؟
كانت يوما جائئة على ركبتيها ، تنظر من زجاج النافذة بملل وإذا
بوصيفتها تدفع لها بطاقة شخص يطلب مقابلتها . . وما أن نظرت
إليها حتى نهضت بسرعة وأصلحت خصلات شعرها وهندامها ثم
دخلت إلى ردهة الاستقبال . وقد تناولت رقبها كالأوزة الكبيرة .

٥

وقف رينيه لونيهار أمامها وقد أصفر لونه عن ذى بدء .
وامتلاء خديه ، ولمعت عيناه ولكن فى شىء من الألم . وبدت
عليه آثار الحمى التى أصيب بها فى الأقطار الحارة . واحتفظ
بنظرتة التى فيها شىء من التحدى والجرأة . وفه الكبير الذى يدل
على العطف قالت له :

— هأنت ترى أن الأرض صغيرة . وأن الإنسان فى مكنته
أن يطوفها . لست بالمشدوهة لأننى رأيتك ثانيا ولكننى سعيدة .
كان كل قد اعتزل عن الآخر مدة كبيرة من الزمن وعاش
كل حياة مجهولة عن الآخر . لذا فأنهما يجدان فى التعارف من
جديد . وقد بدأت هى بواجبها كصاحبة المنزل ثم تحركت بدافع
خفى فألقت إليه الكلمة الأولى التى مصدرها القلب :

— لقد كنا نفكر فىك لماما

هنا انطلق رينيه الى الذكريات القديمة ، فتكلم عن أكواب
الشاي فى شارع نيث دى بتيت شامب ، ونزه ميدون ؛ الأثواب
الطبيعية الحمراء والبيضاء ، صديرية مسيو فيليير .

سأله عما إذا كان يضع الضفادع في جيوبه ؟
ومضت برهة من الزمن . انتقل بعدها إلى سرد رحلاته
وما كان من أمرها . وهي تحمق فيه بعينها الجميلتين . وسأله عما
سيفعله . فقال أنه تعب من جراء الخدمة الطبية العسكرية
وسيستقيل ، ويشخص إلى الضياع حيث يتمتع بالطبيعة ويمتنع
حرفة الطب . فإذا قدر له أن يلتقى يوماً بفتاة ريفية تعنى بتربية
صغار الدجاج تحت رعايته ، فسيقترن بها . قالت بحرارة :
— آه ! تريد الزواج ؟

ولكنها فهمت من أجابته أنه لا يعني ذلك ، لأن قلبه حزين
وبه جرح لم ينثل . وقد تكون ذكرى مؤلمة !

عاد جورج من الكلية فرمى بنفسه بين الأثنين حاملاً كتبه
المدرسية ونظر إلى الضيف الجديد نظراته البريئة وابتدأ في
اللعب ، فلم تطرده هيلين ولكنها أمرته أن يلزم السكون
ويؤدى فروضه . . وعاد الطبيب يقص أقصوصاته . فأطبق
الولد قاموسه محدثاً ضخمة كبيرة ، وأخذ يسحق مقلته بأسنانه
ورفع رأسه حينما سمعه يقص قصة حيوانات البحر الحية التي
أكلها بحار فوق سفينته .

جاءت الوصيفة تقول أن سيدها ، الذي يتالم ، يرجو أن يرى
السيدة قريبة منه .

كانت غرفة مسيو هاثيلان كبيرة وملائمى بالأشياء الغريبة
في أوضاع خاصة . هناك منضدة مكسوة الزجاج صفت عليها
الزجاجات وعليها العناوين ، تاج ، جوردين ، سيموئس ،
أورتاس ، تير ، أهيو ، الخ . . ويحتفظ بنصف زجاجة من مياه
الأنهار التي عبرها ثم منضدة زجاجية أخرى ، تحوى نماذج لكل
أنواع الرخام الموجودة في العالم . . وهناك دولاب هو مجموعة
ذكريات تاريخية . يحوى أحجار من سجن تاس (١) ، من منزل
شاكسبير الذي ولد فيه ، من كوخ جان دارك ، من مقبرة
هيلوئيس (٢) ، بعض أوراق من شجرة الصفصاف الباكية
لسانت هيلين ، قطعة من أشعار لاسنير في السجن الشهير
بالكونسيرج ، صندوق ساعة سرق من التويلرى سنة ١٨٤٨ ،

(١) شاعر أيتالى كبير ولد في سورنت سنة (١٥٤٤ - ١٥٩٥)

(٢) هى حفيدة فلبرت العالم الكبير في قوانين الكنيسه ، ولدت في بارى سنة
(١٦١٤ - ١١٠١) واشتهرت بملاحتها ببيير أبلارد للفيلسوف والمبزر في
علم اللاهيات وقد اشتهر أيضا بحوادثه المنجمة .

ومشط كانت تملكه الأنسة راشيل^(١)، وزجاجة تحوى خصلة من الشعر لجوزيف سميث نبي المورمون^(٢)، هذا غير التذكارات الأخرى، وفي الغرفة مناخذ كبيرة من الخشب الأبيض، وغيرها من صنع بعض الفنانين والكل مغطى بأخضر الأنسجة. وكانت تتصاعد من الغرفة رائحة العقاقير القوية. أما مسيو هاثيلان فقد استلقى على مقعد طويل قريبا من مضجعه الحديدي وألقى غطاء من أغطية السفر على قدميه في حين اشربت ديباجته حمرة، واطلمت عيناه. أخذ يدي زوجته بحنان هؤلاء القوم الذين يشعرون بان كل ما لهم قد ولى. أسر لها أنه يحبها، وأنه يشعر من جهتها بالامتنان ثم أنه يشعر بخطر المرض الذي يرجو الشفاء منه. أنه يثق بدواءه الشافي الذي يجيد تحضيره جرول. وكان ينقطع عن الحديث بسبب الدوار الذي يعتريه. استأنف الحديث: يجب أن اعترف لك يا هيلين أنه قد مرت على دقائق اخطأت فيها. وهذا يرجع لمرضى. إن كل ما عملته في هذه الدقائق يجب ان تطوى صفحته.

(١) ممثلة فريدة نبقت في فن التراجيدي. ولدت في سويسرا (١٨٢٠-١٨٥٨)

(٢) طائفة في الولايات المتحدة تكون ولاية صغيرة على شاطئ البحيرة الملحة

ومن حسن الحظ أن تكون أعمالى منظمة . وقد أودعت الوصية عند مسجل العقود . . . وهنا قال لها أنه يترك لها حق الارتفاع بثروته التى يجب أن تؤول الى جورج هاثيلان . وترك لخادمه جرول جزءا وقد أخبره بذلك . ضغط على يدى زوجته من جديد ونظر إليها نظرتة الغريبة التى تشع الماثم رجاها أن تصغى إلى ما يأتى : -

— إذا ما انتقلت أنا من هذا العالم وأردت أنت أن تسدى إلى جمىلا أبخى ، يا عزيزتى هيلين ، أبخى عن صامويل أوار واذكرى له شعورى ورغباتى الأخيرة وأستحلفك بأسم سيدنا المسيح الذى سيبعث الأموات إلى حياة جديدة ، ألا تهملى أعطاء سليل دافيد أوار الأخير المبلغ الذى أوصيت به . أنه على قيد الحياة . وقد رأيتة فى بعض الليالى . أتى أعرفه لو حضر . سوف يحضر .

شخص المريض يبصره إلى ستارة قائمة تمتد على أحد الابواب ومد يده التى ترتعش وصاح :

— هناك ، هناك ، أمام هذا الباب ، هذا هو ، هذا هو

سام أوار!

هل ترين جيدا هته العلامة التي يحملها في رقبتة ، تحت قميصه
البحرى ، هته هي علامة حمراء ، من أثر جدته ، الشيخ داويد ...
سام ! سام ! أوه ! يا ألهى !

• سقط على مقعده الطويل ونام نوما خفيفا . لم تعرف هيلين
ماذا تفعل وسدرت بين الأغطية : نادت جرول الذى أبعدها
بخشونة واستولى على المريض .

وفى المساء إعتراها الأرق ، فرأت على ضوء القمر ، زوجها
ينزل من نافذة غرفته ، وقد التف فى دثار من الصوف ويسير
إلى اليمين قاصدا عينا قريبة من الأسطبل ، ذهل وجهها خلف
زجاج النافذة . وأحست بألم فى جذور شعرها . فلم تقو على
الحركة أو الصياح . رأت جرول يخرج وهو نصف عار من
وكره الذى ينام فيه ، متبعا سيده . رأت زوجها يطيل النظر
إلى قاع البئر ثم رفع رأسه ومد يده كمن يبحث من أى جهة
تجىء الريح . ثم دخل من نافذة غرفته . ورأت جرول يهز منكبيه
ويدخل إلى منامته وارتسمت عليه علامات الشر بأجلى مظاهرها
وظهرت مادام جرول برهة . ولكن هيلين سمعت جرول يضربها
بعد دخولها غرفته . ولقد أصبح مسيو هاثيلان يغط فى نوم

عميق ، يسير ، يتكلم ، يتحرك وهو نام !

في الغداة وجدت هيلين زوجها ذا نشاط يعمل في سكون في الكتابة على الأحجار الصغيرة المأخوذة من بعض الآثار الشهيرة . كتب على وريقات عليها أثر كتابة ممحاة . هته الكلمات : كولينزي (١) ، كاتا كومب (٢) ، مقبرة سيسليا (٣) ميتيلا . وكانت عيناه ذوا الزرقة الباهته ، لاتدلان على شيء ولكن هيلين لم تظمان بالا اليه ، فأرادت أن تظل قريبة منه ، ووعدته أن تسهر عليها بنفسها وأن تدعو الأطباء رغما عن أنه لا يريدهم .. ودخل جرول حاملا زجاجة وكوبة . ملاء الكوبة من الشراب

(١) مدرج هائل في روما بديء في بنائه أيام الامبراطور الروماني فيسبازيان وتم في عصر ولده تيتوس . ويحوى ثمانون صفا حجريا .. ويتسع لثمانون ألف من النظارة . وكان يجري فيه قتال الابطال والحيوانات وكان الرومانيون يقبلون على هذه الرياضة الدموية ويحضرها الامبراطور وعمر المقاتلون امامه وهم يصيحون « السلام باقصر ، أن الذين سيموتون يحبونك »

(٢) مقابر تحت الارض ويطلق عليها جبانات المغاير والشهيرة منها ، وهي في الاصل كهف يستخرج منها حجر البناء في روما ونابل وسراكيور وباري . وقد اشتهرت الاولى لانها استعملت ملجأ للنصارى في عصر اضطهاد النصرانية . وقد وجد فيها نقوش ورسوم آية في الفن وغاية في الالهية بالنسبة لتاريخ النصرانية .

(٣) لعله يريد ميتيوس الروماني الذي ضرب القرطاجنيين في سيسليا .

سم قدمه إلى سيده وهو يحرق في هيلين وقد صوب إليها نظرات
هى غاية في القحة والتحدى حتى انصبغت بلون أرجوانى .
وما أن شرب مسيو هاثيلان الدواء حتى شعر الدوخة
وشلت أعصابه . واتسعت حدقيه بشكل غير مألوف . ومنذ
ذلك اليوم وهيلين تحس أمرا جديدا . وساورها القلق . وذات
مساء ، نحو الخامسة ، لاحظت آثار حذاء قد قويت نعلاه بالحديد
على بساط غرفتها . وكان الأثر يدل على أن صاحبه قطع أنحاء
الغرفة في خط معوج من الباب الخارجى إلى غرفة الزينة . وهذه
الآثار خفيفة لم تكن لتراها لولا ضوء الشمس ، التى أضاءت
فى هذه اللحظة فأظهرت آثار التراب الرمادى على البساط النفيس
وقد ذعرت فنادت وصيفتها وافتقدتا غرفة الزينة . ولكن كل
شئ على ما هو . أخذت تجهد نفسها فى تعرف هته الآثار ..
وأتعبها التحقيق دون جدوى .

عاد رينيه لونجمار ، وأخذت هيلين ، التى أتقنت زينتها
كما يريد ، تشكو اليه بؤسها وتعس حياتها وآلام زوجها . وقد
شعرت بعاطفة الحب نحوه وتمنت لو تهوى على هذا الصدر
الكبير الحار فتبكي وتستعطف . فى حين ظل رينيه صامتا أمامها .

وهو يجتهد ألا يضيع ثقتها فيه ، إنه يحبها باحترام . لقد كانت
شعر حياته الصديانية .

وقد عادت له أخلاقه القديمة .

في نفسه مكان مرتفع عظيم لمخلوق سامي . لم يجد من يستحق
هذا المكان إلا هيلين ، وهته كانت تعب ، ضعيفة ، منغصة من
هذا الزواج الخالي من الحب . تلتزم جادة العقل ، وتمثل فيها
الحشمة والوقار أمامه .

حدثته عن مرض زوجها . هز رينيه رأسه ولم يعرف ماذا
يقول . ولكن أبدى احتمال سوء المعالجة . ولم يشخص الجراح
المساعد المرض حسب سيره الطبيعي ، وكما شرحوا له عوارضه .
وقد عزى اتساع الحدقتين إلى الأسراف في تعاطي الدواء
المركب من النبات المسمى بحشيشة الحمرة . وكان يجب عليه
لمعالجة داء المفاصل أن يستعمل ملح كلورات هذا النبات . ثم
شرح لها رينيه خطأ هته المعالجة . ولذا جدت عزمها على
استدعاء الأطباء . والأشرف على المريض بنفسها .

وفي الغداة وجدته في الهرى ينعم قطعة من الخشب بعناية
كبيرة ، فقد كان نجاراً ماهراً كما هو كيتاى . لما أن رأته هادئاً ،

يتمتع بالراحة ، خيل لها أنها حاملة ، وقد حدثها عن الطاهي ،
الذي طرده من خدمته لأنه سارق بعد أن اكتشف جرمه
جرول . وكان يضع آله التي يستعملها في تنعيم الخشب (الفارة)
على طاولة النجارة ثم يزيل برشاقة النشارة التي تعلق بأطراف
معطف زوجته الذي ترتديه في الصباح . وقد تجملت عيناه جميلتان
يحفظان بلونهما الطبيعي .

فكرت في رينيه ونشاطه وقدرته على بعث السرور في
النفس . فهو كالكتاب الذي أحكمت عباراته ، ثم نفسه المليئة
بروح الشباب وقوته . وقد امتلأ قلبها كراهية وهي تتأمل هذا
الشيخ . . جاء جرول في الساعة المعتادة يحمل الدواء لسيدة .
ولما رأى هيلين في هذا المكان الذي لم تمسه قدماها من قبل ،
دحرج عينيه ، عينا القطعة الزائغة تتجلى فيها الحقد الكمين . ثم .
ككل المرات عندما ابتدأ مسيو هاؤيلان يتذوق شرابه ،
رمقها جرول بنظراته الوقحة ، وشفته تتحركان عن غيظ .
مدت ذراعها إلى الأمام كما تنتزع هته الكوبة من بين شفتي
الشيخ ولكن جرول همس في أذنها بلهجة سوقية أمره :

— لا تفعل ذلك يا بنية !

فسكنت خجلة وقد تحولت بيضاء كالثلج . شرب مسيو
هاويلان الدواء وجفف شفتاه . ونزلت التعسة الدرج وهي
تتخبط وتضرب أحماسا لأسداس . . وقد أخجلها جبنها ،
وعولت على عدم الظهور أمام زوجها ولكنها علمت في المساء
من وصيفتها بأنه أصيب بألم شديد . وقد خلد إلى السكون حتى
أنها ظنته قد قضى . . فتهدت عن قلب مكلوم . . وقالت :
« أنه لا يزال حيا ، لا يزال في الوقت فسحة ، فلا تكلم . .
لن أكون شريكة في الجريمة لهذا . . . »

وفى احتياج شعورها هذا ، تناولت عشاها ، ثم استسلمت
للكرى ، وهي تحلم في رينيه الذى ملك عليها مشاعرها واستحوذ
على لبها ونهاها . وكانت رأسها قد اشتعلت واصطكت أسنانها ،
ثم لم تدر بعد ذلك ما الذى آلت اليه . رأت وجوها مخيفة تمر
بها ولم يك ثمة وقت يسمح بتعرفها . أين هي إذأ ؟ وماذا يريد
منها هذا الجمهور الغريب الذى ارتدى جميع أنواع أردية الملاحى ؟
وشعرت بحر شديد يضايقها . هذا هو قط احمر يتغير لونه .
ضمت ذراعاها وثنت ركباتها . هاهي راهبة قد أتت تضع عليها

أغطية . ولكن لم هذا ؟ ثم هؤلاء اثنين أو ثلاث يمنعونها من الخروج

كان عليها أن تعمل شيئاً ثقيلاً . ولكنها لم تعلم شيئاً أكثر من هذا . . . صاحت . « أوه ! رأسى ! رأسى المسكينة ! ، أحست بألم في مخها فهى تبحث عن حائط ، حائط من حديد تسحق به هذا المخ وتستريح . أوه ! يجب أن تسرع فتعمل مصرفاً لتصريف الماء الذى يغلى هناك . قال صوت مجهول : « الجليد ! الجليد ! أيضاً ، ولكنها لم تر جليداً ، وقد ضلت كما كانت وسط الرمال المشتعلة وعلى شاطئ من النحاس الذائب . صاحت : « رينيه ! رينيه ! خذنى إلى غابات ميدون ! هل نسيت وقت أن كنت تصنع لى باقات الورد ؟ ، ثم هى تغفو فتحلم أنها عادت صغيرة تسمع الأقايصير وتعاليم مسيحية لسيدة من سيدات الدير : « لا يمكن ، استذكار دروسى ، يا سيدتى ، أنتى أشعر بألم فى رأسى . إذهبى بى إلى المنزل . أريد رؤية والدى . . . »

وفى ذات يوم ، كانت فى وضعها وقد خارت قواها ، وشعرت بجوع . فعلمت من المتدنية التى تسهر عليها ، أنها قد اجتازت مرضاً خطيراً استمر ثلاثة أسابيع وأنها أنقذت . وبعد

بجهود عظيم بذلته في الرجوع إلى ذكرياتها تسألت :- وزوجي؟
فقال المتدينة الأتقن فهو سائر إلى التحسن وقد اتعشت
هيلين ونقته ولكنها لاتزال تحس آلام الرأس وفقدان
الذاكرة اللذان يعقبان عادة الحمى العقلية . ولم يكن يشغلها إلا
شعور واحد هو خوفها من رؤية زوجها . وقد دق قلبها حينما
سمعت أن مسيو هايلان قدنقه وسيحضر ليراها في غرفتها . نظر
إليها بعطف وحنان . وبثها لواعج حبه . وللمرة الأولى ، ارتسمت
على هذا الوجه الغليظ ابتسامة . وقد كانت حقا ابتسامة داخلية
تعبّر عن إخلاص . الأمر الذي جعلها تعطف عليه فبكت
وداعبت الشيخ مداعبة الأطفال . لفت ذراعها حول عنقه
ولكنه كان قد استقام فبذلت مجهودا وإذا ساقها فكرها إلى
جرول ودواؤه . فأخذت يدا زوجها وقالت بصوت يفيض حنانا .

— إذا كنت تحبني ، إذا كنت تريد أن تبعد عن كلانا شبح
الموت الخفيف ، أطلب منك أن تبعد خادمك اليوم وإلى الأبد
أن مافعله . . . هذا مريع . . . لا يمكنني أن أقوله . . . أبعده !
أبعده ! ، - ثم اختفت وهي غارقة في بحر من الدموع .

وتذكر مسيو هايلان أن هيلين كانت تمقت هذا الخادم من

قبل . وكم شكته إليه فظن أن ذلك دون أى سبب ، ولكنه رأى
الآن أنه من الضروري أن يضحى خادمة في سبيلها

أمر أن يؤتى إليه بجرول فى المعتمل حيث قال له :

— جرول ، يجب أن تفصل عنا . أنتى راض عنك ، وقد
كنت أود أن تظل إلى جانبى حتى وفاتى ، ولكن أصبح وجودك
فى هذا المنزل محالا لأسباب لالحل لذكرها ! لن أغير شيئا من
جهة مكافأتك . يجب أن تغادر المنزل يوم الجمعة وسأقوم بأود
حياتك وسوف أعتنى بامرأتك التى أبقياها فى خدمتى وأرجو أن
أوفق فى العثور على صامويل أوار .

ليس عندى ما أقوله لك أكثر من هذا .

لم يجب جرول فأنحنى وخرج .

٦

إذا .. أ بعد جرول يوم الجمعة . في الغداة شعر مسيو هاثيلان
بتحسن لم يشعر به منذ شهور كثيرة . فقام في هذا اليوم بنزهة في
غابات بولونيا تصحبه هيلين . التي تعافت .

سبب لهما دوى العربة ومداعبة الهواء تعباً لذيذا وقد
تجلت على هيلين مظاهره . أحست في هذه اللحظة بقلبها الضعيف
ينفخ بحب زوجها العجوز . وتحت تأثير المرض ، في لحظة
مريضة ، أحبت زوجها الجالس بجانبها تغوص سيقانهم تحت
فراء واحد .

أخذت تمتع نظرها بالأشجار ، مصايح الشارع ، المارة التي
تخلفهم العربة ، منازل شارع «شامب إليس» بجوانبتها التي تصنع
فيها العربات والممرات المفروشه بالرمل . حيث جثمت الخيل
تحت الأقواس ، في الظلال ، وأمسك السائسين الجائمين بقيادها .
ثم لاح قوس النصر مرتدياً حلته الدائرية من أنوار الطبيعة .
وإلى الشمال الشارع الذي يؤدي إلى الغابات ، وقد ظهرت على
ناصيته الحدائق الأنكليزية . . وإلى اليمين كانت الفرسان تخطر

في الممرات الرملية ، تسطع عليها شمس الربيع الفاخرة . وانتشر غبار أثارته عربة مقفلة ذات أربع مقاعد .. هذه هي فتاة شقراء جميلة تقود عربتها وتثير زوبعة في الشارع . وجلس خلفها سائس ضاماً ذراعيه إلى صدره .. وهب نسيم الغابات اللطيف على العربة . وأخذت العربات تتلى ، وقد أطلت منها وجوه مزودة بأنواع المساحيق ، وكانت ترتفع التحيات من عربة إلى أخرى . ويقرب الفرسان وهم يتسمون من السيدات اللاتي احتجبن تحت غطاء عرباتهن المظلمة . ومر من الطريق المقابل عرس لبعض العمال سائرين على أقدامهم . وجدت هيلين أن زوجها على غلظة ليست مقبولة . لقد عهدته رجلاً هادئاً رزيناً .. أن سكون هذا الرجل ، وهدوء وجهه ، وبساطة أفكاره ، كل هذا قد حاز أعجابها الآن . أنها تجله وتبجله منذ أن أنقذته . ولكنها من جهة أخرى لاتزال تتذوق السعادة بشيء من الضعف والتعب الذي يتلاشى . كانت تنكش في سرور الهرة التي تحس البرد .

غادروا العربة قريباً من الشلال ، إلى حيث دخلوا مقهى كيا يتناولوا شيئاً من اللبن . إلى يمينها وشمالها ، كانت الموائد

تضم إلى جوانبها أغمار الشيوخ يهيمسون وقد بدت نبراتهم نسائية . وجلس أمامها ثلاث شبان يتبادلون الحديث ، بصوت جلي . ولم تعرف من هم هؤلاء الجالسين أمامها . ولكنها عرفت هذا الذى أولاها ظهره . وبالرغم من أن الخادم وقف حائلا بينهما إلا أنها عرفت من نظرة واحدة إلى ظهره . شعرت بآلام شديدة فى المعدة ، وجفاف فى حلقها ، والتهاب خديها . ولكنها فى الوقت الذى تتألم فيه تشعر بفرح .

كان هذا الجالس قريبا . والذى سبب لها هته الآلام هو لونجمار ولم يك يدرك أنها على مقربة منه . لهذا فهو منهمك فى حديثه . وقد ضمنه آرائه الغريبة كعادته . قال لأصدقائه :

— ان النطاسى الشريف الوحيد الذى أجله ، هو بينيل . أنه لم يعط قط دواء لزيائنه ، خوفا من تعبهم . أو أن يعرقل سير المرض . وقد ابتهج عند ما أمكنه أن يشفى بطريقته جرحا امتنع عن مداواته بالعقاقير . وأمام هذا النجاح الباهر الذى حازه فى هذا الجرح . ظل نديها ، محترماً . فيا له من طبيب عظيم ! تلاشى صوت رينه بين صوت الضحك الذى ارتفع وقتئذ . وزاد اللفظ . واستمر الثلاثة فى الحديث . أما هيلين فقد أحست

طراوة في حلقتها ، وامتلات آذانها بالأصوات . ولم تكن عيناها
الترى شيئا آخر . وتندى جبينها بالعرق . ولما أن رآها زوجها
على هذا الحال سألتها عما إذا كانت تعبته وهل تريد أن تعاود
الدخول ، ولكنها لم تكذب تلتفت إليه حتى وجدته في حالة
غريبة . فقد تقلص وجهه ، وبهتت عيناه ، فتأهبوا للرحيل ، وهنا
رآهم ونجمار ، وقد تبادلوا نظرات قوية كادت أن تجذب كلا
نحو الآخر .

في الغداة ، لم يتمكن الشيخ من مغادرة غرفته ، وظهرت
أعراض المرض المتقطع مرة أخرى . وبعد بضعة أيام كانت
حالته تنذر بالخطر ، وفي صباح الجمعة دعت هيلين طيبيا . وفي
هذا اليوم كانت هيئة المريض مخيفة . تضخمت العروق .
وخرجت العينان من تجويفهما . وهذى هديانا غريبا . وأوصى
الدكتور هرسان ، الذي كان يعيده دواءً ضد التشنج ولكن لم
يفد شيئا . فقد شخص جرحا واسعا عميقا وسط الأعصاب .
وقد خاف أن تحدث الخاتمة المفزعة بعد حضوره توا . فصرح
أن الحالة سيئة وطلب عقد بجمع من الأطباء في المساء للمشاورة .
في هذه اللحظة أتم جرول حزم أمتعته بواسطة امرأته ، ثم

استقل مركبة للكراه تاركا القصر ، تنفيذاً للأمر الذى تلقاه ..
أقامت هيلين قريبا من المريض . مستلقية بهيئة مخيفة . ولم
تجسر أن تنظر إليه ، ثم ، على حين غرة . حملت فيه بشكل
غريب ، فحسته بكل عينيها وأرادت أن تراه ، تراه إلى النهاية
حتى المات .

كان التعس يتصارع بين خادمين ، الذين بذلا مجهودا كبيرا
فى أبقائه تحت الفراش . ذكر امرأته وصامويل أوار . وبدى
صوته ، الذى تغيرت نغماته ، جديدا ، مرعبا . ولفظ أسم هيلين
بنغمة متهدجة تفيض حنانا . وصرخ صرخة مرعبة ، ثم ضحك
بعتوه ولكنه كان مفجعا . حتى أن الموازنة لمتعذرة . فأن أرجح
الناس عقلا لا يمكنه أن يقارن بين ألفاظ الحنان والحب
بتلك التى قصد بها التهمك المخيف . ولا تسل عن الرعب
الذى سببه هذا المنظر لهيلين . فقد أحست كما لو أن سلوكا من
المعدن المحمى فى النار تسرى من قفاها إلى عقبها . وأن أحشاءها
تمزق .. أصغت إلى صوت زوجها بانتباه .. أن عذابها يزيد
لأنها لا تستطيع أن تميز نبراته . ولو أنها سمعته فى هذه اللحظة
يصب اللعنات بلسانه وأصبعه لحف عذابها .

في العاشرة مساء اجتمع حوله الأطباء هرسان ، جيرار ،
وبلدك وقد قام بجركه عظيمة من كل أعصابه . ثم هدأ .

وكانت هيأته كالنائم . وقد ابتدأت هيلين تحس عذابا جديدا ،
والمأ شديداً ، بل أفضع الآلام . لقد أحست أنها ستفقد الصداقة
والإخلاص كامنين في شخص هذا الرجل الذي أحبها . شعرت
بالأسى يطرق قلبها من أجله . ذلك الأسمى الذي يجعلها خائفة
كالخيسة المناقفة . أفليست هي التي . . . ؟ .

أستمر تطور المرض ، وأصبح المريض في حالة تضايق منها
من يقومون بخدمته - إذا استثنينا الأطباء - وتدلّت يداه
العظمتان فوق الغطاء في حالة برودة وضعف . أمسك الطبيب
هرسان قبضة المريض اليسرى وقد لاحظ ضعف النبض ،
وبرودة الأطراف . تدلى الأنف . ففرت العينان اللتان كان
يديرهما حوله يريد أن يرى ويعرف كل ما حوله مرة أخرى .
ثم أضجع رأسه إلى الخلف وصرخ ثلاثا وخلد إلى السكون .
وأعلن الطبيب هرسان أن كل شيء قد انتهى .

سمعت هيلين ، التي كانت إلى اليمين تتوجع ، بهذا النزح
الأخير . أنه مات ! شعرت أن الأرض قد فتحت تحتها ، وأنها

قد سحقت . وتمنت لو قد قضت هي الأخرى . يا ليتها لم تجيء
هذا العالم . لم تساعدنا قواها فخرت مغشيا عليها .

التقى الأطباء جيران وبلدك في الغرفة الخارجية بسيد قصير
ذاحية كثة وعوينات من الصدف . . وضع يده في أيديهم
وقال بصوت حزين :

«أيها السادة ، لقد كانت مجهوداتكم عظيمة ، إن علم البشر
مهما تقدم فإنه محدود . وأن أمراء العلم لا يستطيعوا دائماً أن
يسيطروا على الطبيعة . أنتى ممن يحملون شرف معرفة الفقيد .
سأوضح لكم الأمر . مسيو فيلير دى سيساك لن ينسى ما بذلتوه
من جهد فى سبيل إنقاذ صهره العظيم .

ثم ذهب إلى المكتب بخطائفة بطيئة ليتناول أكلة خفيفة .
ذهبت مادام جروول الغارقة فى دموعها وأحزانها إلى غرفتها
حيث أخذت تصيح بصوت يشبه الدجاجة تنادى أبنائها .

أستدعى الطبيب هرسان إلى مادام هاويلان التى تستدعى
حالتها بعض العناية . لما رأت هذا الرجل الكبير الأسود الذى
لم تعرفه يلج غرفتها تولاها رعب شديد سبب لها هذيانا فضمت
ذراعها وصاحت :

— لست أنا ! أوكد لك أنه لست أنا !

V

نشط مسيو فيلير كثيراً بعد موت صهره . كان يُرى في ثيابه السوداء ، ذى الدلالة على الحداد ، مع ابن أخت المتوفى ، وكان يسير ببطأ في الشوارع الخارجية لكي يصل إلى مقبرة موتپارناس حيث اشترى مسيو هايلان له ولزوجته قطعة كبيرة لكي تكون مدفن لهما .

ولما كان مسيو فيلير لم يتعود إلا نادراً على أن يصحو من نومه في الصباح فقد بدى باهت اللون ، يحمل وجهه آثار الأرق . واحمرت عيناه وانتفخت مقلته وكان منظرهما من خلف العيونات ذات الأصداف يكسب وجهه هيئة التعب والحزن وقد ساعده ثقل جسمه على حفظ توازنه في السير . فهو يسير متثاقلاً . ولما كانت الثروة قد غادت اليه من هذا الطريق الغريب . فقد تغيرت قبعته التي علقها في قصر هايلان . وكانت الجديدة زاهية ذات حلية بيضاء ناصعة . أما حذاء مسيو فيلير فلم يعد يحدث هته الحركة القديمة المعتادة . بل كان يخرج كل خطوة صوتاً كما لو كانت تقطنه الأرواح .

أمام البناء الذى شيد على طراز الفريد الثانى عشر ، والذى يرى العمال وهم ينزلون من النعش الخشبي، ويلهثون تعباً . ويصقون فى أيديهم التى التهبت من أثر الجبال . وقف مسيو فيلير عديم الحركة يراعى السماء من خلف عويناته بشيء من الروحانية . فكان الناظر اليه يدرك أن أفكاره ليست محصورة إلى أبواب المقبرة البرنزىة ، بل أنه يخلق فى قطر أثيرى حيث أجواء الفلسفة السامية . كما أنه يخلق أيضاً فى عالم الخيال اللانهائى لدرجة أنسته أنه فى عالم الوجود لولا أن سعالاً خفيفاً ذكره بأنه على قيد الحياة وأن صدره ما زال يخفق بها . ووقف خلفه نفر من الانكليز . أطلقوا شعورهم . على شيء كثير من الضخامة ، يرتدون حلالاً أنيقة . ثم رجلاً يتهامسان جانباً وهؤلاء من الذين يختلفون مع مسيو فيلير إلى مائدة واحدة ومن المترددين على منتدى كمار حيث يتبارون مع مسيو فيلير فى البليارد والدومينو ، كذا جمع الغاشية فى إحدى الممرات الخلفية فى جوانب المقبرة يرفلون فى ملابسهم ، والطهارة فى قلنسواتهم ذى الأشرطة ، وكانت السراويل تمتد إلى شيء كثير فوق الأحذية . وبعد دفن الجثة ، تقبل مسيو فيلير العزاء من جمهور المشيعين ،

بسيئة الرجل الشجاع ، الذي أصابته كارثة ، هلع لها قلبه ، وطار
لبه ، ولكنه يحاول أن يحكم شجاعته على عاطفته ، فهو يشكر
الأشخاص الذين جاءوا يؤدون واجبهم الأخير باظهار شعورهم
نحو الراحل الكريم . ولقد كان يكرر النظر اليهم لأن أحداً منهم
لم يتمكن هو من التعرف عليه . ضغط على يد كل منهم بجلد يعبر
عن قوله : « أشكركم ! أشكركم ! سأكون جلدأ ! سأتأسى ! ، ولما
جاء دور رفيقا المنتدى ، إقتصر على لمس أطراف أصابعهم . وقد
أرخی أهدابه ، وخاف أن يلسوا أكتافه قائلين : « أيها العجوز
المسكين ... »

كرر لهم شكره مرات عديدة . ثم وجه هته العبارات أخيرا
إلى قوم كانوا قادمين لدفن جثة قاض وقد حاروا من أمره .
لا يعرفون ماذا يريد منهم هذا الرجل ذى الرداء الأسود . وكا
أنه من المتعذر أن يميز بين أصدقاء صهره وبين الزائرين الآخرين
الذين جاءوا يشيعون ميتاً آخر ، فقد قام باستقبال كل المعزين
الذين حضروا فى هذا اليوم سواء أكانوا قادمين لصهره أو
لأشخاص آخرين فإنه اضطر لاستقبالهم جميعا وشكرهم .

ومن هذا اليوم لم يخلع حلتة السوداء ولا تنازل عن هيأته

الحزينة . وصار تردده يومياً على منزل هاثيلان حيث يتناول
إفطاره وغذاه ثم يضع يده على رأس جورج ويصيح بين
الزفرات الحارة :

— هذا الولد هو تسليتي الوحيدة .

وفي مقهى كمار ، حيث يلعب البليارد كل مساء ، يصرح :-
ليس الذى فقدته صهرا فحسب ، لقد كنت أنزله فى نفسى منزلة
الابن ، . وفى الحق أنه كان رجلا ظريفا .

سمعت جولى ، وصيفة مادام هاثيلان ، بخبر الصرخة
الغريبة التى صرختها سيدتها عند ما رأت الطبيب ، سمعت بهذا
من البقال والقصاب اللذان كانا يتحدثان سرا فى الغداة ، وراجت
الأشاعة أن أنكليزى «حى لاتور» - موبورج قد مات مسموما
وأن زوجته اشتركت فى هذا الجرم . وفى بضعة أيام آخر انتشر
الخبر فى الأحياء المجاورة . وقد دهش الدكتور هرسان القاطن
فى شارع سان دومينيك ، عندما سمع امرأته فى يوم الاثنين
التالى تحدثه عن هته الأشاعة الدائرة ، عن هته الجريمة ، ولما

كان هرسان طبيبا عرضت له أحوالا كثيرة كهذه وهو يعتمد على علمه وعقايقيره في أبحاثه ، لذا لم يثق بهذا الخبر واستحال أدانته مادام هاغيلان . وأجاب امرأته أن الطب لا يدع مجالاً لثثرة هؤلاء الفضوليين . وقد وقع قرارا عن الوفاة مع زملائه ضمنوه وصف المرض الذى أصيب به مسيو هاغيلان . فهو لا يشك بتاتا فى مادام هاغيلان ، وقد أهمل هذا الخبر .



ذهب لوجمار إلى مستشفى في الصباح لعادته ، ولكنه ،
لا انتشار وباء التيفوس ، تأخر عن ميعاده كثيرا . فلم يذهب إلى
مونتبارناس إلا بعد أن دفن مسيو هاثيلان . وكل ما أمكنه أن
يراه من الاحتفال هو هيئة مسيو فيلير المحزنة ، وهو يستقل
عربة خارج المقبرة يجرها جوادان أسودان ، وضعتها تحت أمره
مصلحة الاحتفال بالموتى . عاد إلى الخلف أمام هذا المنظر ، ومر
بين الزهريات ، وأوانى الرمل التي تستعمل لمعرفة الوقت . والتي
نقشت في المدخل . وإذ بشاب قوى يمسك به . وصاح بصوت
جميل يشبه رويير ^(١) وهو يصيح « أيتها الراهبات اللاتي ... » .
هذا هو رفيق المدرسة ، بوتيني الذي اشتهر في المدرسة بعدم
مقدرته على فهم العلوم والآداب ، وهو يشغل وظيفة مخبر في

(١) لعله يريد *Robert Macaire* إحدى شخصيات نزل أدريه . وأدريه
هذا هو زعيم بروستانتى ولد قريبا من جرينوبل واشتهر بقساوته . وقد
أبرزته الشخصية الممثل الفرنسي الذائع الصيت فرديريك ليمبتر (١٨٠٠ -
١٨٧٦) وشخصية روبرت مثال للخصه .

صحيفة كبرى . وقد جاء ليسمع ثلاث خطب تلقى على مقبرة
أحد أعضاء المجمع . أمسك بذراع لونيهار وقال :

— يا عزيزى ، أنتى أدعوك لتناول العشاء معى ، هذا المساء ،

عند بريفا .

فى أثناء الطعام كان لونيهار نائراً كعادته ، يعالج عدة مسائل
فى الحب والنساء محلاً ذلك تحليلاً علياً . متفكها فى الحديث
يحول الكلام إلى معانى أخرى . وكانوا يكرعون كؤوس
الشمبانيا التى هى من الضروريات لبوتيبى . وكان دائماً منهمكا
فى العمل لقد مضى ساعات فى القطرات هى أسعد أوقات حياته .
لقد حضر حفلات إزاحة الستار عن تماثيل فى جميع مدن فرنسا .
ولحق برئيس الجمهورية فى البلاد التى غمرها الفيضان . وحضر
أفراح الطبقة العليا . وسمع محاضرات عما يصيب الكرم من
الآفات . رأى كل شىء وهو أقل الناس رغبة فى الاستطلاع . ولم
تكن تعجبه فى هذا العالم إلا بقعة واحدة . هى شاتو حيث يملك
منزلاً صغيراً وقارباً هما كل ثروته . ولم يكن من عمل
إلا ويحتاجه .

وتحدث لونيهار عن مسيو هاثيلان فذكر أخلاقه ، موته ،

والاشاعات الأخيرة عن تسممه عن طريق الدواء .

نحو الساعة العاشرة ، قال بوتبي :

— أنتى ذاهب إلى إدارة الجريدة ياعزيزى ، إنتظرنى برهة
فى منتدى سُئيد . أنتى مرتبط بموعد هناك

فى الساعة الحادية عشر كان الأثنان يدخنان أمام مائدة من
الزنك فى ضوء الشارع وعلى نور مصايحه .

قال بوتبي : أنت ترى ياعزيزى أن مجذافا قصيراً ، يحسه
الإنسان فى يده ، قد أحذب طرفه ، يخرق الماء كالمدية ...

وهنا دنى منه غلام من غلمان الشوارع وقال :

— أن هذا لن يكون الليلة .

فأعطاه بوتبيه نقودا وصرفه ، وكأنه لم يرتاح الى هذا الخبر
فتمتم بكلمات ثم شرح الأمر لصديقه .

— هذا الغلام الذى يقطن الأزقة ، يعرف كيف تجرى
الأمور فى روكت . لقد جاء يخبرنى أن القاتل فى شارع
شاتو - دى - رتير لن يعدم هذا المساء . وعلى ذكر هذا بما
أنك طيب ، حدثنى قليلا عما إذا هناك ألم بعد فصل العنق ؟

فأجاب لونجمار !

— لاشيء أسهل من أن أشرح لك ذلك .
وابتداً في شروحاته :

— الحياة كائن كمي ، كما قال بوفون ^(١) ، تتأثر الزيادة أو النقصان . أما عقدة فلورين ^(٢) الحيويه فهي خطأ كبير . أصغ إلى جيداً إذا أمكنني أن أقول مع بيشا ^(٣) ان الحياة هي مجموع قوى تقاوم عند الموت ، يجب أن أزيد أن هته القوى تقاوم أكثر أول أقل وقتاً طويلاً في القضاء الاخير . ويُنتج فصل الرأس حالة جديدة قوية وتلغى الحاسية بصفة نهائية ولكن الحياة العضيلة تستمر . يجب ألا نخلط

— لا . لا . افضل أن احذرك . سيطول شرحك وأنا لم أفهم شيئاً البته . ومن جهة أخرى . فإن العلم يبدو لي مبهما . هناك بعض مسائل ، مثل هذه التي تتعلق بخلود النفس ، مثلاً ،

-
- (١) عالم طبيعي وكاتب فرنسي مجيد من القرن الثامن عشر ، ولد في مونتبارد ، ومؤلف كتاب التاريخ الطبيعي (١٧٥٧ - ١٧٨٨)
(٢) باحث كبير في علم النفس ولد في موريلهان (١٧٩٤ - ١٨٦٧)
(٣) طبيب فرنسي شهير وحجة في علم التشريح ولد في نواريت وهو مؤلف « التشريح العام » (١٧٧١ - ١٨٠٢)

ومثل هذه التي تتعلق بوجود الآله ، اللتان هما من الصعوبة
بمكان !... للسرور أن الآله لم يجيء ذكره الآن . وعلى ذكر
ذلك ؟ ما رأيك في وفاة الأنكليزي الذي دفته اليوم ؟ يجب أن
نردد هذا الصوت ، على شريطة التتميق قليلا . ماذا تقول في
ذلك ؟

٩

لما أن أمرُ جِروِل امرأته أن تعد له حقيبته . أسر إليها أنه راحل إلى أفراش حيث يباشر بعض الاعمال . وقد ورث حقلا صغيرا في مكان مجاور . ونزل في فندق في ضاحية ، أقيم على بابہ تمثال للحصان الاحمر . وكان يُرى في الضياع ، يصب من القنينات ، التي يحملها ، العرق في أكواب القهوة ، وذلك جرية على العادة الشائعة في هاته البلد . وكان مرحا ، يتكلم بحزم ، وظهر بمظهر الأَدب .

وفي يوم الأربعاء استقل القطار إلى جرانثي عند ما ولى النهار ، في وقت مخيف ، هبت العاصفة ، كما يقول البحريون ، وأمطرت السماء ، وهبت ريح عاتية اقتلعت المصاييح التي سمع دويها وهي تكسر في الطرقات . أخذ يتخبط نحو القرية القديمة وعطف إلى شارع ضيق ، معوج ، مرتفع ، انتشرت فيه رائحة ماء المد . وكان يُسمع لقدمه الأيسر ، حينما يرفعها ليتبع بها الأخرى ، صوت المنجل في الحنطة ، كما أن جسمه ينحن إلى الأمام مع كل خطوة . أسرع الخطى في الظلام الدامس ، وكان

يدفق الماء من تحت قدميه وهو يدمدم ويتوعد . دخل حانوت
تعس لبقال . وقد ظهرت في زجاج الواجهة الصغيرة مرطبان
للحوى . ووضع في الداخل مضجع ذا كلة مصنوعة من القطن
الاحمر . أما الأرض التي عليها البناء فهي غاصة أجزائها بالماء .
وعليها آثار نعال حديدية مقواة بالحديد . لم ير أحدا ، وبدون
انتظار البقال ، اجتاز الحانوت ، الذي كان المدخل الوحيد
للنزل .

صعد الدرج وقرع باب الطابق الثاني ، فخرج شيخ صغير
يدانى ذقنه بشمعة . وامتنح الزائر ، من الباب المفتوح إلى نصفه
ثم أدخله في غرفة مكتظة بحزم الأوراق الممزقة ، وسجلات
ممزقة الجوانب ، وأوراق مقواة مثقوبة عليها طوابع قديمة . ولا
شك أن هناك خلف حزم الورق تلك ، سباق من الفيران .
فقد كان يسمع من آن لآخر حركات صغيرة ، وأصوات غريبة
صادرة من أنحاء الغرفة تكمل أصوات العاصفة والمطر المتساقط
على السطح .

في زاوية مظلمة ، مضجع وهنان غير وثيق الأوصال . تخيم
على أنحائه العارية سحب التعاسة . كما خيمت سحب الثرى على

ما هناك من أشياء فأكسبتها لوناً جديداً . وقد بدا وجهه رب المنزل أغبر كلوف المضجع . لم يكن فيه لينطوى على أسنان البتة . ولسانه لا يني عن الذهاب والمجيء بين شفقيه الطريتين . ونظرة إلى عيونه ذات الزرقة الماسخة ، نراه يحلم ، في خفة ، في هاته الفيران التي تذكره بصوتها خلف الحائط . قال جرول وهو يجلس :

— آه حسنا . تريد أن تحدثني ؟ ؛ هل من جديد ؟

مر الآخر بلسانه على لثته متمهلاً وقال بصوت أخف .
يطيل في نبراته :

— أنتى لسعيد جداً برؤياك ، سيدى العزيز جرول ، هناك جديد إذا أراد الانسان وليس هناك إذا أراد . هذاتبعاً للارادة .
في أثناء حديثه مريده على لحيته الشهباء وبدا كمن يعد كتاباته على شعور ذقنه . قاطعه جرول بزجره مفرغة للصبر .
قال الآخر :

— آه . يا ألهى اكم تتضايق . من الحق أيضاً أنتى أدعى تانكريد ريلين ، وأنك تدعى ديزيرى جرول ، أنتى أقف نفسى على خدمتك . إن الأب ريلين معروف فى كل الأنحاء من كارول

إلى حيث يصاد السمك في بريها. الكبار كالصغار، يستشيروننى «
إننى أقوم بأعمال كل هؤلاء للسادة. وليس أمس بيعيد، لقد
جدد مسيو دى تانكارثى ثقته بى. آه! سيدى العزيز! تلك
هى ثقة كادت تُفقد! قال لى مسيو دى تانكارثى، ما نصه :
« ريلين، أريد أن أشعل معك غليونى، ثم هاك ما حدث
فى الاسبوع الماضى، فان البارونة دوبسك — مارينشى...
هوى جرول على المائدة بقبضته مقاطعاً. فصمت ريلين
دقيقة. ثم عاد بصوته الطويل الناخر.

— هلم إلى أعمالك إذا سمحت. أنتى أنتظر أمرى. لقد
أحضرت لك ورقة ميلاد صامويل أوار وأوراقا أخرى تثبت
شخصية هذا الرجل. ولقد مرت هاته الأوراق من يد إلى
أخرى. ياسيدى العزيز، دون أن يضر ذلك بالفائدة التى تريد
أن تجنيها. أنتى لم أعمل ذلك إلا لمصلحتك.

قال جرول وهو يقطب حاجبيه: وبعد ذلك.
أجاب النورمندى: — إنتظر قليلا، انتظر.
ثم بلل شفثيه وقال: — لا أريد أن أبحث ما هى مصلحتك
فى الحصول على أوراق صامويل أوار، أنتى حازم. أن الحزم هو

من فضائل عملي الصغير ، ولكن هب أن صامويل أواز قد مات .
فصاح جرول : وربك ! إذا كان قد ذهب فلن يعود . ثم
أغرق في الضحك . قال الشيخ وهو يتأمل في الدبايس المعلقة
في كم ثيابه :

— انتظر ، انتظر ، لنفرض أن شخصاً يحرز وثيقة رسمية
مسجلة عند وفاته ، وثيقة وفاة صامويل أوار ، المتوفى في چرسى
دون أن يترك نسلا . وأن هذا الذى يملك الوثيقة استعملها
في الوقت الملائم .

فتح جرول يديه المخيفتين وقد بلغت الروح التراقى من هذا
العجوز الثرثار شريكه فى الجريمة الذى يريد الآن أن يدخل اليه
بأن الأوراق التى حصل عليها بضمن باهظ لا تجدى شيئاً :
قال بغلظة .

— لا داعى لهذا الدهاء والغش .

اضطربت مقلتا الرجل الطيب بقلق . ولكن كان صوته
هادئاً حينما عاد الى حديثه :

— كل ما قلته لك ليس إلا لخدمتك . ولكنى أرى أننى
على النقيض منك . لنطرح ذلك بعيداً ولنبق أصدقاء طيبين .

وقف ثم ذهب إلى حيث مكتب تعس من خشب الجوز
فتناول من عليه أبريق ماء فيه حزمة من الأزهار . قال وهو
يضعه على المنضدة :

— انظر . ستكون في حوزتى لكل الفصول . كلما مررت
بكارنيرى هناك ، فى الطريق العام ، أجمع بعضاً من هاته الأزهار
من الحفريات التى تحب أملاك السيد دى ليجل . فأحزم باقة
وألقها بمندبلى .

مر بيده - متمهلاً - على الأزهار الزرقاء . كما تسقط المياه
العالقة بها . أضاف :

— وما دام الانسان يجتثها من جذورها . فليأكد من أن
هاته النباتات تعيش فى الماء كما لو كانت فى الأرض . آه ! يا إلهى !
ليس لى لا امرأة ولا ولد ، لا كلب ولا هرة ، يجب أن أتعلق
بأى شىء : أنتى أحب الزهور .

لم يكن جرول ليرسمه . عض شفثيه وضغط على عظم
أصابه . قفز فجأة وصاح : - أنك تملك وثيقة وفاة صامويل
أوار . اعطنى إياها ، انها تلزمنى ، أريدها !

ألقي ريلين نظرة فجائية على منضدة الخشب الجوزى .

ورفع إبريق الأزهار برشاقة ووضعه في مكانه ثم جلس وبل شففيه . قال :

انتظر . كن حلما . إني أملك هاته الوثيقة ولا أملكها . ومن الجائز ان أستعملها وقد أهملها ولا أفكر فيها . ولكن لتناقش بزعم أنني حصلت عليها . لقد علمت أخيراً ان مسيو هاغيلان - الذي تلحق بخدمته منذ اعوام كثيرة ، أليس ذلك حقا ؟ - يبحث عن نفس هذا الصمويل أوار . ومن الطبيعي أنني افكر في خدمته يا سيدي العزيز . وسيمتلي غبطة بالحصول على معلومات خاصة بهذا المسكين صامويل ، الذي توفي بأثنا في چرسى .

نظر ريلين إلى صاحبه ليرى مبلغ اقتناعه ولكن جرول أجاب بهدوء :

— إذا أردت ان تبعث بالورقة إلى سيدي فاعلم أن المنون قد اغتالته في هذه الساعة .

لحق رجل الأعمال وجنته اليسرى بلسانه وحملق بعينه الزرقاويتين في الخادم مرسلا نظره الحاد . في حين نظر جرول إليه بمكر ودهاء . قال :

— يا للسيد المسكين هايلان ! هذا هو مصابنا ! ولكن هل أنت واثق يا سيدى الطيب ، من موت سيدك ! هناك إذا ! يا لليسوع ! أمراض يمكن أن تعرف نهايتها من البداية . وأسفاه ! يجب أن نعود إلى عملنا . أن مسيو هايلان قد ترك وريثة كم سيكون سرورهم عظيما حينما يعلمون ما آل إليه المرحوم صامويل أوار . ليست عندى إلا رغبة واحدة ، يا سيدى الطيب ، تلك هى أطاعة كل شخص .

عاد جرول إلى هدوته وهو يتسم مكرأ ..

— ولكن وريثة هايلان لن يعطونك صولدين نظير ورقتك التافهة . ستكون أبلها إذا أرسلتها لهم . . . أى فائدة تجنبها من ذلك ؟ إعطى إياها وسأدفع لك مبلغاً ، بعد وقت ما . — مهلا ، قص على عمك الصغير . إن الرجل الطيب ريلين يتمتع بعقل راجح . وحينما أعلم ما سيعود عليك ، أسدى اليك النصيح .

— ليس لدى ما أقصه عليك .

آه . ألهى . إتنى أعرف ما هناك . أنك جبان ولكنى سأساعدك . إن لصامويل أوار مكافأة صغيرة عند هذا المسكين

مسيو هاثيلان ، وقد جاء ذكرها في الوصية . فإذا حصلنا على بعض ورقات تثبت شخصية المتوفى . يمكننا أن تأتى بشاب قوى الإرادة ، وينتحل لنفسه شخصية صامويل . بعد أن تعده بمكافأة حسنة . فيذهب إلى وريث مسيو هاثيلان ، ويحصل على المبلغ المخصص له . آه يا إلهي ! لا تعارض ! لا يجب ترك المال مدفونا ، وهذا المسكين صامويل قد فقد الحياة ولم يتذوق خبزه . ولكن ، يا سيدي العزيز جرول ، من الذى سيمثل دور صامويل . وإذا استولى على كل شيء لنفسه ؟ فقد يكون غادراً . وينغص عليك . يجب أن تفكر فى كل شيء . إن هذا العالم السافل مليء بالخيانة والغدر ! حذار ! إننى لا أبغى شيئاً غير سعادتك .

مر الرجل بطرف لسانه الجلودى بين شفثيه وأتم :

— أتحذرك . الرجل الفطن يساوى اثنين . إننى أعرف هذا الشخص الذى يملك قسيمة وفاة صامويل أوار . هذا الشخص ليس بتركى أو يهودى . إنه لا يريد بك شراً فهو أعقل من ذلك . وقد أذنتى أن أبلغك إرادته : تحصل على نصيب صامويل أوار ، فى الوصية ، وعند ما تحصل عليه ، أعطى لهذا

الشخص جزءاً معقولاً بواسطة ، ليس هذا معناه أن تعطيه النصف . لا . . . هذا سيكون كثيراً ، يجب ألا نضايقك . . . ولكن ، كما قال ، جائزة بمعدل خمسين في المائة . . . في نظير ألا يذيع هذا الشخص سر المسألة باستعماله الوثيقة التي يحرزها ، الأمر الذي يفضيك ويسبب لي أشد الألم .

كان جرول منزويًا في الظلام طوال هذا الحديث ثم قفز إلى الرجل وقبض على عنقه صائحًا :

— اعطني الوثيقة . أيها الشيخ اليهودي . وإلا خنقتك .

لقد كان يخشى أن تصادفه عقبة لم يحسب حسابها .

بدى ريلين ، الأصفر الهزيل ، كأنه في النزاع ، جمد وقاوم بعضلاته بمرونة رجل ذى خبرة على العراك مع البحارة الذين يرهنون عنده ساعاتهم ليشربوا الخمر . زادت هاته المقاومة من خوف جرول ، الذي انصبغ بلون احمر وأخرج مديته الرديئة ، ذات النصل المدبب ،

وهنا زلق الشيخ كما يطلق لنفسه الحرية ، فوقع أمام زاوية المدخنة ، الأمر الذي سبب له جرحًا في جبهته . وقع جرول معه دون أن يتركة . ورأى خدش غريمه ، ثم الدم الذي سال

غزيرا ، هذا الدم وتلك الجراح سببت له الوهل . وبحركة عضلية ،
أغمد السكين في هدر الشيخ . . ثم ، بعد دقيقة ، بدت له طويلة
الأمد ، لم يلاحظ شيئاً .

تمدد الرجل فوق يده ، لم يزل جاحظا عينيه الزرقاوين ،
فاغراً فاه . يقاوم بكل عضلاته : ثم ، بعد هاته الدقيقة الأخيرة ،
أقفل يده وفتحها كمن يمسك بشيء . ولم يبد أكثر من هذا .
إذا رقد الرجل رقاد الأخير وقد ارتسمت على شفثيه
ابتسامة الماكر . كسر جرو ل بمديته قفل المكتب الجوزى وصار
ينبشه ويرمى بأوراقه . قاربت الشمعة الانتهاء وهى ترقص .
وأخذت الفيران تقرض الأرضية . وسط هذا السكون . نبش
حزم الورق ، والمظاريف ، رمى بكل الأوراق فوق الجثة
الهامدة . و فجأة أنيرت الغرفة بلهب عظيم . فقد سقطت ورقة
على الشمعة ، فأشعلتها . استمر ينبش الخطابات ، الورق المقوى ،
الأوراق القديمة ، الحقايب الجلدية ، ومحافظ الورق . أخيراً ،
وجد ورقة محتومة فوضعها فى جيبه وقد تنفس الصعداء . أطفأ
الشمعة التى كانت تدخن وقد هب على وجهه لهيبها فخرق جفونه
قبل أن يتمكن من إخماد لهيبها . ثم أخذ قبعته وخرج .

أنصت لحظة في الخارج ، ثم صعد على درج الهرى ، ونظر على نور السماء في الشارع . رأى ، على مدى النور المرسل على الطريق المبلل ، أن حانوت البقال لم يكن مقفلاً فاخفى خلف الصناديق الفارغة وانتظر طويلاً وقد علا صوت الخنازير ، وشخير النائمين ، ودقات الساعات . . أخيراً . . لما أن وثق من ان المنزل والشارع في هدوء تام ، تسلق جبلاً ، كان البقال يستعمله لأصعاد بضائعه إلى الهرى ، ونزل إلى الشارع في خفة القرد .



١٠

نقبت هيلين ولا يشغلها إلا فكرة واحدة ! الاستحواذ على رينيه والحرص من أن يفلت منها . تريد ألا يبرحها ظله . تحس إلى جانبه الطمأنينة والقوة . فلقد زعمت أنها إذا ما جمعتما غرفة واحدة ، لن تشعر بهذا الخوف والفرع اللذان يعترياها . إذا فلتتزوج وتعيش في سعادة بين زوجها ووالدها . وكل ماضيها البريء حافل بذكرى هذين الرجلين . ! لا إن العقل الشرير لن يوحى إليها بكل هذا الحب .

ولم تدر شيئا من الأشاعات الدائرة حولها في الحى .

ونظرة إلى وصية مسيو هاثيلان ، التي قرأها الوصى على الورثة ، نجد أنها خالية من التعقيد والأبهام . فقد ترك المتوفى استثمار ممتلكاته لهيلين هاثيلان الملقبة بفليير ، ثم تؤول هاته الممتلكات بعد وفاة المستثمرة إلى جورج هاثيلان أو إلى ورثائه المباشرين ، إذا خلف ورثاء . أما جرجل فقد ربط له مرتبا سنويا ألف وماتى فرنك . وأوصى صاحب الوصية أن تكون إدارة ثروة جورج هاثيلان القاصر التي كان يديرها هو

في يد صديقه الشيخ م . شارل سيمبسون المالى الباريسى .
ولكن حالت الظروف دون إرادته هذه ، فقد أصيب بكسر في
العظام من جراء كبوة جواد ولم يتمكن من قبول المهمة التي
أناطها به صديقه المتوفى . وعلم مسيو فيلير بهذا المشكل فظن
أنه يمكن أن يحل محل مسيو سيمبسون .

وأخذ يظهر عطفه على ثروة القاصر وملاء الأوساط
المختلفة حديثا عنها . حتى أنه قال يوما ، وكان ذلك بعد الغداء ،
حينما أحضروا له الكونياك ، ولفائف التبغ : أتني أشعر
بالعطف على هذا الناشئ ، ويشغلني أمره كما لو كان ابني . أشعر
نحوه بعاطفة الأبوية .

وبعد أن وضع قطعة من السكر في القهوة عاد إلى حديثه :

— لا أعرف ماذا كان ينبغي أن أفعله نحو هذا الابن .

تأمل قطعة من السكر وهي تذوب في الفنجان وابتسم
بحزن لهذا الاختفاء ، كما لو كان يراعى أمره ، وقد لاح له أنه من
الضرورى أن يكون وصيا على جورج هاثيلان ثم شرب ماتكون
من قطعة السكر وعاوده الابتسام .

أمعنت هيلين النظر إلى والدها بقلق وقد تنبأت بما سيقوله

لها . جرع كما لنا من الكونياك وقال :

— هذا المسكين سيمبسون كبا به الجواد بحالة يرثى لها
ولعمري هذا شيء يؤسف له فمذ مدة قصيرة كان قويا يمتليء
نشاطا . وها هو يصير معتوها . . . حينما قلت أنه نشيط ،
كنت مبالغاً فهو لم يتعود قط على إدارة الأعمال الكبيرة ، هذا
رجل جبان ، يخشى المخاطرة .

وأشعل مسيو هايلان لفاقة التبغ . لقد خاطر ! صمتت
هيلين وهي تحرق بوالديها الذى يدخن فى سكون مرتديا ثيابه
السوداء . يبدو فى تدخينه بطلا وسط السحب . وتجلت فيه
عبقرية المالمين . عاد إلى حديثه :

— هذا السيمبسون كان لنا ، متساهلا ، وأنا أتساءل عن
مبلغ عطفه الأبوى على جورج .

ثم ، وقد انتهى من مقدماته ، أخذ فى طلب ما يريد .
أملى عليها خطابا إلى أفراد العائلة تنتخبه فيه وصيا على جورج
هايلان . رفع رأسه وشار بينانه نحو الورقة قائلا :

— أكتبى ، يا إبنتى ، أكتبى :

« وأنتى لوائية من أن هذا الانتخاب كان يجوز قبول زوجى .. »

وجمت إزاء هذه الأكذوبة الفاضحة، والاختلاق الغريب.
ولكن، قد جحظت عينها نحو أيها، رأت وجه المحترم
وهدوه. الأمر الذي جعلها تكتب ما يمليه عليها. وأخذ هو
يفرغ عبارات الحنان الأبوي في أحسن قالب. وذهب ليضع
الخطاب في صندوق البريد. في حين جلست هيلين وهي خجلة
هلعاً لأنها خدعت زوجها المائت.. أنها تفكر: لو عاد...
فلقد تخيلت رؤياه. واقشعر بدنهما. وارتعدت فرائصها لهذه
الفكرة. ونم وجهها عما تنوء به من تفكير. أنها تعلم حق العلم
أنها لن تراه إلا في الخيال ولكنها لا تستطيع أن تبعد شبحه عنها.

لم يغمض لمسيو فيلير جفن طوال مساءه. أنه يفكر فيما
فعله اليوم. عاد إلى مضجعه وهو يقرع الكوب والدورق
الموضوعان بغليونه. في حين كنت ترى عويناته جانبا الى
الشمعدان على المنضدة المصنوعة من خشب الأكاچو. وقد شغل
فكره بالثروة المقبلة، ثروة هذا الصبي الذي سيصير تحت وصايته.
ليس هذا فقط. فإنه يأمل ان يجد ابنته سهلة القيادة. وهنا ينفذ
مشروعه الخطير، أمنيته، وحله الوحيد. سيبعث هذا المشروع

من مرقدته ، فيؤسس : شركة الرهونات . ولن تتمتع الحكومة
عن السماح بتأسيس شركة لها ضمان كاف . أن قائمة أعضاء
مجلس الادارة ، تحوى اشخاصا ذو اوسمة وألقاب ، الأمر
الذى يكسب الشركة ثقة تامة . فى هذه اللحظة السعيدة ، لحظة
سما فكره إلى عالم وارف من الظلال ، رأى مسيو فيلير شبعا
خفيفاً مرمين أستار مضجعه . . هذا هو شبح شركة العنقاء .
شعر بالعرق البارد على جبهته ، وتحت رداءه المصنوع فى
مدراس ، ولكنه أزاح عنه هذه السحابة المخيفة . تأمل من
جديد فى مشروعه . تخيل لشركته رمزاً سامياً : يدان فى أكام
من النسيج الأبيض الشفاف . وأمسكت احدهما بالأخرى
وارتأى ان يطبع هذا الرمز على النشرات والأوراق الخاصة
به وعلى الخطابات ، والتحاويل ، والسندات ، والتعهدات ،
الصكوك ، وينحت على الحجر فى واجهة العمارة التى تشغلها
الشركة الجديدة بجوار الأوبرا . سوف يتباع قطعة أرض فى
هذا الحى المتوسط ويقيم عليها بناء فخماً لهذه الشركة .
تنفس الصباح ، ولاحت الأنوار الأولى بين ستائر النافذة
ومسيو فيلير غارق فى مشروعه يحلم فى الآثاث ومايعوز الشركة
من منقولات .

١١

في اليوم التالي لهذا الذي تناول فيه لونيجمار وصديقه الغذاء عند بريثا . جلس الأول في مقهى يتناول أفطاره ويطالع جريدة . فوقع نظره على عامود من الأخبار بعنوان « النظارة » لم يوقع كاتبه باسمه الصحيح . وقد عرف أن كاتبها هو بوتيه . قطب حواجبه حينما قرأ الآتي :

« لقد قضى عظيم من عظماء الأجانب ، وهوى نجم . ساطع ، وتمت أنفاس مسيو هافيلان الذي شيعت أمس جنازته ، وقد ترك في منزله المملوء بالتحف والنفائس ، في شارع لاتو - موبورج مجموعة قيمة فريدة ، تحوى بضعة آلاف من الزجاجات الملأى بالمياه من جميع البحار والأنهار والينابيع والشلالات في العالم . وكان مسيو هافيلان شهيراً بخيراته أكثر من شهرته بمجموعاته ، وأن موته ، الذي ستكون له رنة أسف عميقة من كل فقراء حي الإنقاذ ، يبدو أنه ناشئ عن خطأ غير مقصود في تركيب الدواء الذي كان يستعمله لمعالجة روماتزم أصابه . وهذا هو رأى أمراء الفن . ونحن جد سعداء بما لدينا من المعلومات

التي استقينها من مصادرها الوثيقة بحيث يمكننا أن ندل على
الأسباب الحقيقية لهذه الفاجعة الأليمة .

أغاظته العبارة الأخيرة وأهاجته سطورها . وقد صمم على
أن يقطع وجه صديقه بسياطه . وصاح حانقا ، لأعرف اين
يحثم هذا القرد ، وانطلق يبحث عن إدارة الصحيفة . وقد قابله
في الفناء الذي نصب على مدخله تمثال برنزي لعصفور وآخر من
الرخام الأحمر على هيئة حمامة . الأول فوق صندوق الخطابات .
والآخر فوق هذا الذي لصور المراسلات . وكان المخبر يستعد
للخروج وهو يفتح مظلته ليتقى المطر الذي يهطل في الخارج .
وقد أمسك هذا بذراع لونجمار وقد عادت به الذاكرة إلى يوم
سرق منه بوتيه أجوبة الامتحان من درجه لكي ينقلها بدوره .
فأخذه شيء من الحنان . ابتسم بوتيه لرؤياه وصاح به :

— يا عزيزي : انتي أدعوك لتناول العشاء معي هذا المساء
عند بريفا ، أنتي ذاهب لحديث مع الحاخام الأكبر . وقف
لونجمار في طريق صديقه واضعا الجريدة الممزقة تحت أنفه وقال :
— ماذا تعني بالعبارة الأخيرة من مقالك ؟ من ، كما تقول
أعطى معلومات عن هذا الحادث ؟ ما هي شهتك ؟ ومن تشبه
فه ؟ أجب ..

أدار بوتييه عيناه إلى لونجمار والصحيفة . ثم أجاب بسداجة :
— سأقول لك يا صديقي القديم . لقد فعلت هذا كما أردت
الصوت . . أردد الأشاعة الدائرة . . هذا كل ما هنالك . وكما
أنك تأثرت بها . . فيجب أن تنتبه جيداً ! لقد هاجمت
ولم أذكر أحداً . وسوف يتردد هذا الصوت ، ويرن صداه
في هلدرا^(١) هذا المساء .

تركة لونجمار بعد أن هز منكييه ، إن أعصابه لمتأثرة جد
التأثر . وقد تنازعت عوامل مختلفة وصدمة الحوادث تباعا ،
وأصابت منه العواطف . ان مما لا يقبل الشك أنه أحب هيلين ،
وأن هذا الحب سبب له متاعب هائلة . وتحت هته المؤثرات ،
ينتهي في أسبوع من كتابة مقالة للجريدة الطبية وألف قصيدته
الأولى . واتصل فجأة بباثة زهور في مرقص عام أنفق عليها في
ثمانية أيام مرتب اربعة شهور .

أخيراً أبدى له أن المقالة والقصة وباعة الزهور . شيء تافه
ممل . وقضى أسبوعاً أيضاً بعد ذلك في حالة ضجر ومضى في

(١) ميناء حربية في شمال هولاندة - على بحر الشمال . والمؤلف يعنى بذلك أن
الاشاعة سوف تملأ العالم .

يوم صحو إلى منزل شارع لاتو - موبور حيث أمكنه - بعد كل هذا الوقت المنصرم - أن يقدم إلى الأرملة تعازيه الحارة .
حينما اجتاز الفناء ورأى المدخل بداله أن قد مر قرن لم يره فيه وكان تعباً كما لو كان قد عاش حقبة عديدة ، وأعصر مديدة .

انتظر هيلين بضعة دقائق في ردهة الاستقبال . حينما بدت أمامه في ثيابها السوداء ، تخيل أن هذه هي المرة الأولى لرؤيته لها . وليس هذا إلا لأنها قد تبدلت تماما . فمذ أن نقهت وقد بدن جسمها وأشربت ديباجتها حمرة قانية . وقد تخيل وهو يراها أنها قد لبست ثوبا جديدا . وابتسمت عيناها تحت شعرها المرسل على جبهتها . ابتدأت هي الحديث . فكان اللاشيء الذي قالته داعيا لاهتياج شعوره . وكانت هي أقدر منه على ضبط شعورها . حدثته عن تذكارات الوفاة الأخيرة وما إلى ذلك من آلام وشجون . ثم انتقلت إلى التحدث عن المستقبل .
حدثته أنها لا تحب العالم . وسألته عن مشروعاته . فهو يريد أن يجرب زبائن المدن ، فيحترف الطب فيها ، وسيمده والده باللازم . فوافقته على ذلك قائلة أنها ذات اصدقاء في سان

جام ونويبي يمكنهم أن يساعدوا الدكتور الشاب ويكونوا عملائه . ووعده أن تشرف على عمله . وتهتم لمستقبله . أما بالنسبة لها فقد قالت أنها لا تعرف ماذا ستفعل . أضافت باختلاق لطيف ان الثروة التي ترك لها مسيوهاثيلان استثمارها، والتي خصص جزء كبير منها للخيرات ، ليست بذات أهمية لها .

أضافت : « إذا صرت امرأة فقيرة . هل تتباعد عني ، وتفتر مني ؟ وهنا دل على ذوق سليم بعدم إجابته . لم يتحدثا بكلمة عن الحب . ولم يخطر لأنفاسه أن تضم أنفاسها . أن يتنفسون بجهد ، وهم ساجدون في عالم لذيذ . عالم الحب الذي يشعر كل منهما به . قالت أنها تشعر بالحر . أخذ يدها وضغط عليها بعد مجهود منه ولم تستعيدها منه . لم يعرفا ما يفعلان وإن هما ليريدان الموت سويا ، أوقف الضمير هيلين . فسحبت يدها ومرت سحابة غيم على جبهتها . فكرت قليلا وقالت :

— هناك أعمال قد فعلتها ولن أزيد عليها .

عقب هذا القول ، الذي أذكى في نفسها دفين ذكرياتها ، أدار رينيه رأسه وقد انحدرت دموعه على وجنتيه . في دورته أخذت يده . وطرقت آذانهم صوت أقدام في الردهة . قالت :

« حبيبي ، حبيبي ... » وبدون أن تتم ، سارت قليلا وجلست على أحد المقاعد

دخل مسيو فيلير ، الذي أعلنت قدومه حركة حذاءه .
وصافح الطبيب بجمرة . وقد تذكر ليالى شارع نيثف - دي
بتيت - شامپ . قال لرينية :

— لقد رييناك ، أنت أبنا . ومن الحق أنك رأيت عندي
وجوه عديدة وأشكال جمّة . لقد كانت بالنسبة لك مدرسة
للملاحظة . والآن .. لقد قت إذا بسياحات . ورأيت أقطارا ،
كحمامة لافوتتين . آه ! البحر !

انطلق يتكلم عن أشعار المحيط بنشاط . ثم طلب أن يأذنوا
له في قراءة رسائله والرد عليها .

استوى أمام المنضدة . وقرأ أوراقا وهو يتذمر ويدمدم دلالة
على تدمره ومлле . وقد تراكت أمامه أكوام الورق والصحف
لذا فقد اقتصر على قراءة الهام منها

وأما هيلين ورينية فقد كانا يتبادلان النظر في سكون وهما
يحملان أنها وحيدان .

أخيرا جر قلبه فوق بعض الأوراق ووقعها بخشونة مرسلا

أيها إلى البريد . واستنشق الهواء مالئاً رئتيه . عاد إلى ملاطفته . أنه ولد طيباً ، في شيء من السخرية . . إقترح أن يقوموا بنزهة خارج البلد ، في الضواحي ، في حين لم يبد احداً رايه ثم انها ليست برحلة سارة . ولما كان يجب ان يتناولوا غذاءهم في الخارج فسياً كلوا بعض المقلبات في ميدون .

وسار الثلاثة إلى نزهتهم وهم يكونون عائلة واحدة . . .

في ميدون السفلى ، ساروا وسط العشب على حافة الماء . رفعت هيلين ذراعها برشاقة لتحمي قبعتها فكانت تلك الدقيقة من لحظات رينيه السعيدة . كان شعر المرأة الصغيرة مرسلاً على جبهتها وقد لمعت عيناها من تحته بيريق عذب . وتبادل الأثنان النظرات العميقة البريئة الدالة على شعور كل نحو الآخر . تذكر مسيو فيلير أعماله . فطلب مدادا وورقا . ولم يحصل - بعد مشقة - إلا على ورقة قدرة . وقلم علاه الصدى ، فخط على ورقة زرقاء من ورق بات الأنكليزي بعض أرقام - ووضعها في جيبه . ثم سأل بخشونة إذا كان صديقه الشاب لا يعرف أصحاب السفن في تولون . قال هذا بلهجة تدل على أنه سوف ينتج فكرة عظيمة . الأمر الذي يعد محالاً . . .

تناولوا غذاءهم . وعصر مسيو فيلير نصف ليمونة على غذائه
المقلى . وقد فعل ذلك بظرف يتجلى في يده الغليظة القصيرة
المثقلة بالخوانم . تأمل الشايين من خلف عويناته ذات
الأصداف . تطوى نظرتة هذه شىء من الغبطة والبركة . وقد
امتدت أمامهم فوق النهر ، مرعى للماشية . وسدت الأفق جزيرة
طويلة بستر من شجر الحور . ومرت بعض قوارب فيها رجال
شمروا عن سواعدهم يجدفون ، فى حين اتجهت انظارهم إلى النساء
الأنىقات الواقفات أمامهم فى الجزيرة ، ينادينهم ويضحكن لهم
وبدى نور يخبو فوق البحر ، أشبه شىء بنور الجباحب ، ثم هطل
الودق ، ورعدت السماء ، وهب نسيم لطيف وسط ، هذا الظلام
الداجى . نخلع رينيه دثاره الأسود ووضعته حول منكبي هيلين
أما مسيو فيلير فقد أخذ يتأمل جمال الطبيعة ، وقدرة صانعها .
فأجاب لونجمار أن الطبيعة إن هى إلا مسرح لمقتلة عظيمة دائمة .
وأن مخلوقا لا يعيش فيها إلا للقتل . وهنا أجاب مسيو فيلير :
— أنك تذهب بعيدا جدا .

كان هؤلاء المتسربلين بالظلام ، يشعرون فى اجتماعهم
بسعادة ، وقد كانوا سيظلوا هناك وقتا طويلا ، لو أن رجل

الأعمال لم يفكر في متدى كلبار . فما أن تذكر أن وقت الذهاب للعب البليارد مع بعض التجار والوسطاء قد احان ، حتى قال وهو ينظر في ساعته ، ويرمش بأهدابه الثقيلة :

— يا أبنائى . لقد حان ميعادى . أتى مرتبط بموعد هام جدا . ثم أنه لن يمكننا البقاء هنا لأنها تنذر المطر .

سكنت الرياح . وعدت بعض سحب عدوا مخيفا فى السماء وبدى قمر كامل . قد لبس حلة حمراء ، وكنت ترى الثلاثة يبحثون عن الممر الضيق الذى يصعد إلى ميدون العالية ، ويؤدى إلى المحطة . وسارت هيلين متكأة إلى ذراع رينيه ، وقد حبس أنفاسهم سكون الليل الرهيب وفجأة سرت إلى هيلين قشعريرة .
قالت :

— أتى أشعر بخوف

بدى رجل فى أثمان بالية ، طويل القامة ، هزيل ، طالت أقدامه ، وما أن رفع قبعته القش ، حتى بدى وجه نحيل ، ذا عينين كبيرتان كدرتا اللون . مد يده وهو يتمم نوع من الرجاء .
ضغطت هيلين على رينيه وهمست :

— رأيت ؟ أنه يشابه ... آه أتى أرتعب ا .

أبدى رينيه قلقه . هذا المتسول يذكركم بالسيد هاويلان .
وقد تألموا لهياته الفانية . وخركات الألم الذي يبديها ، وهي
شبيهة بتلك التي أبداها من قبل مسيو هاويلان . إجتازا الطريق
وقد تناثرت الأحجار تحت أقدامهم . وهيلين على أسوأ حال
من الفزع . وجحظت عيناها نحو شيء في الظلام . في حين لم
ير رينيه أمامها غير شغاف الأشجار تلتف حول صخرة كبيرة
ولكن الأرملة كانت ترى شيئا آخر ، زاد رعبها فصاحت صيحة
الخوف وسقطت إلى الخلف . فأراد مسيو فيليير ان يجلسها
ولكن رينيه منعه من ذلك وتركها ممددة . لقد كانت في حالة
جمود . وشفته تتحركان وهي تزيد . وجحظت عيناها نحو
السماء . ولما ان أفاقت لم تذكر شيئا ، فهي تعبئة منهوكة القوى
وما أن وصلت إلى باب المنزل حتى طلبت من والدها ان يذهب
لينام معها في المنزل ذياك المساء . لأنها لا تزال جد خائفة .
وشدت على يد رينيه بيدها الجليديه التي لا أثر للحياة فيها .
ونظرت إليه في وهن ويأس .

١٢

استمر خوف هيلين وهلعها واستولى عليها القلق والفرع
فهى تخاف السكون وتفزع للجلبة . المنزل وغرفه ، الشارع
وضوضائه ، كل هذا شيء مخيف . فى كل الطرقات كانت ترتجف
هلعاً .. إلى أن جاءت صديقتها القديمة ، ربيبة المدرسة ، سيسيل
والتي تأهلت برجل ثرى . أتت فى حفل كبير لترى الأرملة .
وقد سبب ابتسام الزائرة وغمزها ، عذاب هيلين . لقد قرأت
سيسيل كلمة الصحفى التى لمح فيها من طرف خفى الى موت
هايلان ، فأذكت فيها حب الاستطلاع . قالت لها :

— ما أكثر هذيان هؤلاء الصحفيين . أنهم يتحدثون عن
موت فقيدك يا عزيزتى المنكوبة ، ويغمزون من طرف خفى
إلى أن الحادث ليس بطبيعى ، بل هناك سر قد كشفوا عنه .

أجابت هيلين بفرع :

— إننى لا أفهم منك شيئاً . أوكد لك . . .

ولكنها ارتبكت ولم تستطع المضى فى حديثها . فلقد بدأت
بالدفاع عن نفسها كأنها متهمة بقتل زوجها !

بحثت عن هذا العدد وقرأته ، فأصابها الأرق المستمر .
في هذا الوقت ، كانت محكمة أفرانش مشغولة بجريمة القتل
في منتصف الليل . إن ريلين و كيل الأعمال ذو السمعة السيئة ،
وجد مقتولا في منزله . شارع جستر في جرانشي . حصرت
التهمة أولا في عامل بحري ، سكير معربد ، كان في زيارة ريلين
الساعة الخامسة من مساء اليوم السابق لاكتشاف الجريمة . وقد
رآه البقال ، الذي يسكن في الطابق الأول ، وهو صاعد وعليه
علامات الشر . ولكن التحقيق الطويل أسفر عن براءته فأطلق
مراحه . وعادوا إلى البحث في منحنى آخر . فامتحن المحقق
ظروف الجريمة ، وذهب إلى منزل القتل ، فعاب الأوراق
المبعثرة بعيداً عن المكتب ، وقد استنتج انها نبشت بسرعة
وألقيت على جثة القتل . فكونت مجموعة كبيرة . ووضعت كل
في مظروف ، تحمل اسما وعنوانا . وقد ترك الباقي منها حينما
وجد بغيته . وحدث أن عثر المحقق على مظروف في آخر
المجموعة ، وهو فارغ ، دليل على أن أحداً ما استولى على
محتوياته . وعلى زاويته العبارة الآتية :

مسيو جرول ، عند مسيو هاثيلان يباري .

فبحثوا عن اسم جرول في جرائقى فلم يعثروا به . ولكنهم وجدوه في افرانس ، في سجل فندق الحصان الأحمر . وقد كان هناك حينما جاءه رجال الشرطة فقبضوا عليه .

علمت هيلين بهذا الخبر من الصحف ، بعد ليلة قاسية ، رأت فيها شبحة في حالة مفزعة ، كان أمامها ، دون أن يذكرها بشيء ، ودون أن يصبغ وجهه بأرجوان الحنق والأزدراء . لقد أراها فقط صنيعته . وهو مرتدى في ثوب دموى كيف تعيش إذا ، إذا عاد شبحة إليها كل ليلة ؟

جاء والدها وقت الغذاء فأرتمت عليه بحجاب وخوف وحدجته بعينها وهي تهزه بعنف حتى انه اضطر ان يقول لها :
— ماذا عندك إذا . أنك تسيئين إلى .

ثم حدثها انه كان دائماً غير راض عن جرول . وهاقدا كتشفت جريمة هذا التعس الذى اقشعر لها بدنه ، وقد طرأت عليه فكرة جديدة هى البحث عن صامويل أوار ، فكتب في الصباح كتابا خاصا بهذا الموضوع إلى سفير فرنسا فى انكلترا ، وسيواصل أبحاثه . وفى أثناء ذلك بدت نظراته الحادة كما لو كانت ستخترق الطنّف .

تأملت هيلين من سماع هته القصة التي تذكرها بما أوصاها
به زوجها ، فقالت له :

— أبتاه ! ألا تقبل أن ترحل مع ابنتك بعيدا ، بعيدا جدا ؟
فسألها ببساطة : أين ؟

وقد بدى له أن فراق متدى كلما ضرب من أشد ضروب
المحال . قبل جبهة أبنته وتمتم : أيتها الأبنة !

ثم ، بفكره المتساهل نحو الحياة وحنانه الأبوى ، وجد
ضالته التي يستبقى بها الأرملة الشابة في پارى . فقال لها :
— إن صديقنا لونجمار لن يروق له سفرك .

ولكنها أجابت أن مسيو لونجمار لن يفكر بعد إلا في فتاة
صغيرة مرحة ، ثم ضمت يداها في تضرع وصاحت بصوت
محزون :

— ألهى ! ألهى ! أى شىء صارم هى الحياة .

أخذ يداها وعاد بصوته الغليظ .

— لمن تقولين يابنية !

بعد أن القى مسيو فيلير بمحفظته التعسة على المنضدة ابتداء
يدخن ، وهو يفكر فى صامويل أوار الغائب .

ومن هذا اليوم ، ساء حال هيلين من الحزن والتفجع .
ونالها من غصص الكرب وتباريح العذاب مانالها . وقد أحست
ب حاجتها إلى الاعتراف حتى يعتلى الحق الصراح .

على أثر التحقيق مع جرول . طلب المحقق معاينة منزل
المتهم وذهب مدير الشرطة يستأذن مادام هاثيلان فى البحث عن
بعض أوراق فى غرفة جرول القديمة ، التى كان يقطنها أيام أن
كان يلحق بخدمتها . ثم طلب محادثتها .

رعدت فرائص هيلين لهذا الخبر . ورأت فى غرفتها ، زوجها
مبلبل الخاطر ، ولكن فى هدوء وسرور . كان جالسا يتصفح
مجلة . ثم اختفى شبحة من أمامها .. إذا قد تبدل هلع هيلين
بأنكى الآلام .

لقد تخيلت القضاء يقف منها موقف الاتهام . وجرول الخادم
يفضى اليهم بمعلومات عنها . ان كل ماقرأته عن جرائم مارى
انطوانيت تعاودها ذكرها . وتتنيل سيف القضاء يحز عنقها .
ولقد ترى فى سيائها أفضع آيات الرعب والوهل . تقلب مقلتها
فى حجاجها كالمختبلة المسوسة من فرط ذعرها . فى الساعة

العاشرة سمعت قرعاً على الباب . فتحت النافذة كيما تقتل نفسها
أو تنقذها ، وجاء جورج الذى عاد كعادته من الكلية . قذف
بكتبه جلال على المنضدة . نظر إلى عمته . وقال لها :
أن عينك كبيرتان اليوم .

فتح كتبه باستهتار ريثما يتم أعداد الغذاء ، لعمل واجب
يونانى . ثم جلس القرفصاء فى زاوية مقعد ، معتمدا بذقنه على
المنضدة . وجعل يبحث فى قاموسه . ورغمما عن استهتاره فقد
ترجم ترجمة حسنة . وقد أحدث أثناء الكتابة بقعا من الحبر
مسحها بعد ذلك بلسانه .

كانت تصغى ببلادة الى ما يحدثه الصبي من قرقرة بحذاءه
على مقعده . أخذ يقلد صوت مدرسه فرفع صوته .

— لاحظوا ياسادة ، ما تحويه أشعار سفوكليس من النظم
الحسن . نحن لانعرف كيف كانوا يلقونها .. مسيو لا بروني ،
ستصرف لى ذياك الفعل عشر مرات .

ثم قال الطفل بصوته الجمهورى :

— هلا عرفت يا عمتى أن أستاذى يلبس ياقات من الورق .

نحن نسمة بيتون . أتعرفين لماذا ؟ ذات يوم ، قال لناد أيها

السادة ، لقد كان يتون وحش غريب الخلق ذابشاعة كريمة .
وهنا صاح أحدنا ويسمى لابروني «أنه مثلك» أنه شهير لابروني
قولي إذا ياعمتاه . أتعرفين أنك سيدة فائقة الجمال ؟

ثم اتجه بأفكاره إلى الترجمة اليونانية . فقد أخذ يقرأ الكلمة
اليونانية وترجمتها بالفرنسية بصوت عال يملاً الغرفة . يشبه
الطائر الغرد . وكان يقف أحيانا عن القراءة ليعد كرات اللعب
الرصاصية الصغيرة . .

— ان الرأس الألهية لجوكاست قد قضت ... باللغاوة ..
لقد ذهبت .. الى مضاجع العرس .. هذا معناه نحو غرفة النوم .
لاحظوا .. ياسادة ، أية اصطلاحات قيمة ! . وأية موازنة !...
مزقت شعرها ونادت الميت ، أترين ياعمتى أن لائيس في الفرنسيه
هو الموعدة ، ولكن في الأغريقية هو الرجل الطيب الذي
تزوجته جوكاست ، وذاك الزواج لم ينجح .. « مزقت شعرها ،
ونادت لائيس الميت ... »

خرجت هيلين من تلك الترجمة من الأغريقية إلى الفرنسيه
بقصه سامية لامرأة يائسة .

أما هو ، وقد تعب ، فإنه لقربه من النهاية ، أسرع :

— لقد رأينا المرأة المشنوقة ، وهنا ضغط بالقلم على الورقة
تفرقها . وكشف عن لسان مغطى بالحبر . ثم أنشد :

— المشنوقة ! المشنوقة ! لقد انتهت !

قامت هيلين وصعدت إلى غرفتها هادئة . فبدت فيها صورة
واضحة للارادة .

التفت بوشاحها الأسود ونزلت من درج الخدم .

١٣

لما أن صارت في الشارع . جهرت عيناها . فقد كان هذا الصباح رائقا ، وانتشرت الأنوار انتشارا غريبا . وقد أكسبت الأنوار الطبيعية جميع الأشياء أبهى الحلل وأجملها . هاته الأضواء سامت هيلين العذاب . وكانت لا تعي شيئا مما تراه . كانت تنظر بذهول إلى الأشياء - كأرقام العربات وأسماء المتاجر ، وبدت لها مقلقة ، تنهك أعصابها المريضة . كل ما رأته تخيلته قد اخترق نفسها بوحشية وجرحها . سارت بعزيمة ماضية . فلقد خطر لها شيء بدا حسنا ، فكرة تغلبت على ماعداها للتو واللحظة . سارت وهي لا تشعر بما يناها من تعب . فقد تسلطت إرادتها الحديدية عليها . . ولاحظت أمامها فتاة تسير حاملة ولدا صغيرا وزجاجة من اللبن . ورأت هيلين القطرات البيضاء التي تسقط واحدة فأخرى إلى أحجار الأفريز . كل ما يشغلها هو هذا اللبن المراق . فكل قطرة مراقبة كانت تسومها أنكى العذاب . عند ما انتهت من الطريق ، بدا لها طريق آخر ، فترددت ثم اتجهت إلى اليمين وعاودت سيرها . كان حى أرزاي معطراً برائحة الحدائق . لقد ذهبت .. في شارع پال عند قطرة رويال .

وُسِد الطريق أمامها بزمرة من العمال ، عمال الترام ، والعربات .
اتجهت إلى القنطرة . دون أن تنظر إلى الماء . وسارت إلى اليمين
حيث سارت بين مجاميع الصفصاف وممرات الحمامات . فدخلت
قاربا مملوءاً برائحة الماء الساخن والقطران . ثم طلبت من العاملة
أن تعد لها حماما . وانتظرت ، وهي تعض قبضة مظلتها . وكانت
على أتم هدوء حينما دخلت حمامها وقالت أنها ستقرع الناقوس
إذا ما أرادت رداء الحمام . حينما أقفلت الباب الصغير عليها ، فتحت
النافذة بحركة عنيقة ، وأسدلت الستائر . وتنفست بقوة . . . وكانت
تأمل أمامها السين يحرك أمواجه الصغيرة الهادئة . . . بعض
الغسالات في قاربهن عند الشاطئ . الآخر ، وكان ظنين الناموس
يرن في الهواء صاعداً من فتحات حمامات الرجال المزخرقة . . .

رأت هذه المناظر بغير اكتراث وبدت كأنها سعيدة .
وكان منكيبها ملتفان بدثار من الكازمير الأسود ، وأرسل
قناعها على قبعتها وحول رأسها كخيال الموتى وبدت أجمل منها .
في أى وقت آخر . وقويت عزميتها . وثارت موجة خفيفة
ما لبثت أن ازدادت . وقد كانت القوارب تخطر بخفة ، ومن
أمامها قارب متجه إلى بون دي جور ، فسمعت أصوات راكبيه

يتحدثون عنها ، وهما شابان من العوام ، يدفعان بالقارب إلى القنطرة ، ينظران إليها متأملين ملاحظتها . وقد لحظت منهما ذلك وسمعت أصغر الاثنيين . ذا الديباجة المشربة حمرة ، يقول لزميله

— ما أجل هذه المرأة ، وما أفتنها !!

ولكن سرعان ما مرّ القارب واختفى تحت قنطرة رويال . هل يوجب هذا الأزدراء أم السرور؟ تحركت زوايا شفاتها وبدأت ابتسامة . . كانت وديعة ، وهياتها المترددة عذبة مطمئنة . رفعت ذراعها الجميلين بدلال طالما أشقى رجال ومرت بأصابعها على جبهتها . ثم ، وقد اكتفت بما رآته أغلقت النافذة حينما كان الوقت ظهراً . في الساعة الثانية لم تكن قد دقت الجرس بعد . ومرت عشر دقائق أخرى فدهشت الخادم من أن احداً لم يناديها وفتحت الباب وسألت عما إذا كانت السيدة ليست في حاجة إلى شيء ما من أحد في الداخل ولكن أمامها شيء أسود معلق بين النافذة والمرآة . هرعت الفتاة تصيح في طلب النجدة .

كانت هيلين هايفلان معلقة برباط الرقبة - رباط جور- التليد إلى حيث تعلق المعاطف . وقد لفت منكيبها بذلك الوشا الذي أهداه لها رينيه في ميدون . أما ركبها ففهما مشدودتا

بصلابة . ومس طرف أعقابها الأرض . وغطت وجهها
بنقاب رفعوه فكشف عن وجه منتفخ ، وتدل لسانها من النغم
وبدا أسود اللون منتفخا .. لقد انتحرت هيلين هاويلان لتتخلص
من هذه الحياة التي تسومها العذاب . حياة مريرة لا طعم لها .
ولقد كانت تتعذب من ضميرها الذي يوخزها ويؤنبها على مسلكها ،
وكانت تتخيل نفسها مجرمة آثمة . ملطخة اليد بدماء زوجها . ثم أنها
من البداية لم تكن مرتاحة إلى هذا الزواج . لأنها تحب ، وتحب من ؟
تحب رينيه لونها الشاب الجاف الذي لم يقل لها يوماً أنه يحبها
ولم يبادلها عواطفها . أنها تعسة ، في كل أطوار حياتها . لم تنهأ
بجها ولا بزواجها .. وهاهي تنتحر ، فتتخلص من هذه الحياة الثقيلة .
واختفى هذا الوجه النضير ، الذي عبس له الدهر .
وارتاحت تلك النفس المعذبة فلن تقلقها بعد ذكرى زوجها ،
ولن تضطرب لرؤية الحبيب . فقد آن لها أن تفارق الشجون
والآلام وأن تودع العالم هادئة مطمئنة .

وقد صرح ضابط الشرطة الذي نودى به :

لقد رأيت كثيراً سيدات متحرات . ولكن هذه هي المرة
الأولى التي أرى فيها سيدة مشنوقة .

١٤

سمع لوانجمار نبأ تلك الفجيعة التي تفرع لها الصخور والرزية التي لا تعوض وكم هلع لها قلبه وكيف لا يهلع ، وتلك امرأة أحبها ورأى فيها مثله الأعلى ثم هو يفتقدها اليوم فلا يراها ولما يمض على اجتماعهما الأخير وقت كثير أحبها ولكن صدمه المال فحطم قلبه وتركة كسيرا بأثسا وهو لم يزل في المرحلة الأولى من حبه ، ثم زال هذا الشبح الذي نعص عليه حياته ، وترملت هيلين ، فكان يتعزى عماسلف برويتها والتحدث إليها . ولكنها كانت تتألم ، فيزيد مظهرها الحزين من شجونه وآلامه . وأخيرا هاهى تفارقه دون أن تترك له كلمة واحدة . فيا للبصية ، لقد اندرأ القضاء دفعة واحدة على هذا الشاب ، وحكمت الطبيعة عليه بأن يعيش حزينا بأثسا كسير القلب ، بعد أن حكمت على حبيبته ومالكة فؤاده بأن تحيا حياة بائسة مريرة ، حكمت عليها باليأس القاتل ، أفقدتها قلبها وأملها وسعادتها حتى فضلت الاتتحرار ، فذهبت في ريعان الشباب وخلفت بأثسا محزوننا ، يقذف جمرات الألاحظ المستعرة ويقلب مقلته في حجاجه

كالمختبل المسوس . ليس له من الأحساس والشعور لا قليل ولا كثير . لم يظهر من الخلال الحسنة غير إقدامه وجده في التطيب فقد كان يعمل في تطيب داء الكلب . وزاد نفوره وشجاره مع أترابه وعلى صدره بمراجل الحقد نحو النساء . فترك ثياب الظرف والملاطفة وأقام وحيدا . وبلغ من جزعه وفروغ صبره أنه لم يمكنه أن يتناول غذاء واحدا في الملبن دون أن يتشاجر مع الخادم والعامل والفتاة الحاسبة . وفي مناقشة حادة مع رئيس المستشفى ، استقال من خدمة الجراحة الحربية . وفي يوم صحو جاء إلى والده ، في أردن بغير كتب ولا أردية . وأما بذقن ثلاثة أسابيع وهيأة العبوس . كان مفتش الطرقات السابق ، شيخ صغير يعمل في قطع أشجاره ويعبئ أنبذته في زجاجات . يعهد منزله ، يشق الأخشاب ، يذهب ويثوب وقد أولى أشياء الحياة اهتمامه العظيم . هز منكبسه حينما رأى ابنه يتمدد في الحديقة طوال يومه . وقد وضع غليونه في فمه وقبعته تغطي رأسه حتى الأنف . قال له يوما بعد الغذاء ، انه يحس وربما في ذراعه . ولا يؤلمه هذا ولكنه يشعر بالتضخم ثم سأله عما يجب ان يفعله . فأجاب رينيه

— لا شيء

ثم أدار عقيقه الى الرجل الطيب

كثيرا ما خاطر الشيخ ، ذى المعزقة فى يده ، قريبا من
كومة التبن حيث يتمرغ ابنه .. قال له مرة :

— إذا كنت مريضا ، فلتذهب لتنام فى مضجعك . وإذا
كنت تريد ان تغامر فى الحياة مرة ثانية فأنتى مستعد ان اساعدك
على مسلكك .

اعتاد رينيه ان يخرج بعد الغذاء . فيذهب قريبا الى حيث
واد عميق ضيق ، وشواطىء نهر صغير . كل شىء يبدو غشا تافها .
كان المه خاليا من الجمال والظرف . واقام بضعة اسابيع على
هذا الحال .

ذات يوم بينما كان يتشأب ببلادة على الشاطىء ، رأى
أطفالا يقذفون الحصى فى الماء . بحركات رشيقة خرقاء . وقد
كانت هاته المخلوقات الصغيرة ذات شعور صفراء ووجوه قد
أشربت حمرة قانية وهى تضحك وتمرح ، يجعلون من الماء موجات
خفيفة . يضحكون وسط تلك المناظر الخشنة . طرأت فجأة على
لونجمار فكرة . ناداهم ، ولكنهم هربوا فتعلقوا بالأحجار الناتئة

فسقطوا إلى القاع الموحل . وغطسوا ولم يتقدموا . علق أحدهم بشق في صخرة فوق النهر ظلها مختلفة . وكما ارتعب حينما أتى إليه لونيجمار وجذبه من جحره كالحية . لم تكن هيأته شريرة حتى أن الولد لم يخافه . قال له :

— هل تريد أن تصغى إلى ، أيها الوحش الصغير ، إذا كنت تريد أن تريح بعض النقود فأحمل إلى بعض الضفادع أنك تعرف كيف تصيدها ، وأحضرهم إلى مسكني عند الأب لونيجمار .

وإذا ما استحوذ على ضفادع ، قبع في غرفته التي امتلأت برائحة الأدوية والتبغ . وكان والده يراقب في سرور الضفادع المعلقة ، واضمر لولده أثناء عمله احتراماً : وعمل جهده على عدم إقلاقه حتى ليسير على أطراف أصابعه . وقد سأله يوماً : ألا يمكنني أن أساعدك في تحضير ضفادعك ؟ ألسنت في حاجة مثلاً لأن أنحت لك القوالب ؟ يمكنني أن أقوم بأعمال الطلاب . وصب الرمل الرفيع .

— تعلق رمالاً ناعمة فوق الأرض ! ولم هذا ؟

فشرح الأب ما كان يظنه وهو أن ابنه يحشى الضفادع

يُجْعَلُ مِنْهَا مَجْمُوعَاتٌ فَنِيَّةٌ : قَالَ :

— لَقَدْ رَأَيْتُ فِي بَارِي ، فِي حَوَانِيتِ الطَّيْرِ مِثْلِ ، ضَفَادِعِ
مَحْضَرَةٍ بِاتِّقَانٍ . وَقَدْ عَمِلُوا مَنَاطِرَ لِعِرَاكِهَا وَجَعَلُوا فِي يَدِ كُلِّ
حِسَامًا صَغِيرًا . وَمَنَاطِرُ أُخْرَى وَهِيَ يَلْعَبْنَ وَيَقْفِزُونَ فِي الْمَاءِ
الْمَوْضُوعِ فِي زَجَاجَاتٍ . تِلْكَ مَهَارَةٌ فَائِئَةٌ . لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا وُلْدِي
أَنْتَ تَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَمْ شَعَرَ بِالْخِيَّةِ حِينَمَا عَلِمَ أَنَّ ابْنَهُ يَعْمَلُ بَعْضَ تَجَارِبِ . كَانَ
هَذَا فِي نَظَرِهِ أَعْمَالًا خَاصَةً بِالطَّلَبَةِ . وَمِنْ ذَلِكَ طَفْحٌ وَجْهَهُ
بِالْأَسَى . وَقَدْ تَنَاوَلَ ضَفَادِعَ مَعْلُوقَةً عَلَى النَّافِذَةِ وَهُوَ يَحْرُكُ رَأْسَهُ أَسْفًا .
ذَاتَ صَبَاحٍ أَخْبَرَهُ ابْنَهُ أَنَّهُ رَاحِلٌ . فَكَانَ شَجَارِ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ
وَمُنَاقَشَاتٍ عَنيفَةٍ اتَّهَمَتْ بِأَنَّ افْتِرَاقًا غَاضِبِينَ

وَلَكِنْ سَرِيعًا مَا بَكَى الْوَالِدُ الشَّيْخَ عِنْدَمَا عَادَ إِلَى مَنزَلِهِ . أَمَا
رَيْنِيهِ فَإِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَلْقَى عَلَى الْمَقْعَدِ فِي الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ حَتَّى اخْتَدَ
يُحْفَفُ دَمْعُهُ .

فِي مَحْطَةِ رَيْمِ رَأَى شَابِينَ يَلُوحُ أَهْنَهُمَا مِنْ مَوْضِعِ الْمَتَاجِرِ
دَخَلَ عَرَبْتَهُ كَانَ أَوْلَهُمَا يَقْرَأُ فِي الْبَيْتِ جُورْنَالٍ . وَيَسْمَعُ تَرَبًا
الْأَخْبَارِ الْهَامَةِ .

— الأزمة الوزاريه مستمرة . . . حدث انفجار مقلق في
حى كيبو . . . أُنفذ حكم الأعدام في المدعو جرول (چوست -
ديزيرى) الساعة السادسة من صباح اليوم . فى ميدان مارشى
بجرانفى . . .

سأله الآخر :

— ماذا فعل ؟

— لقد قتل شيخا ، واتهم بدس السم لأحد الأنكليز
الأثرياء ولكن هذه الجريمة الثانية لم تثبت للقضاء . ألا تذكر
قضية جرول ؟ .

— كلا .

وبعد هنيهة من السكون . قال :

— هل هناك إيضاحات ؟

قرأ بصوت منخفض ! « منذ الرابعة صباحا : الآلة المهلكة . »

لم يصغ لونجمار للباقي . طوى القارىء صحيفته وقال :

— حتى الدقيقة الاخيرة أحتج بأنه لم يضرب المجنى عليه

قصد قتله . هذا سيان . أنه شرير شهير . . . والآن فساآكل

قطعة من الحلوى . . . وأنت ؟ . . .

أقام لونجمار في پاری خاملا . وقد بقيت له بضع مئآت من
الفرنكات من خدمته في كوشين شين . فأضاعوا للتو . وكان
يستيقظ في الظهر ويذهب للجلوس على شاطيء لكسمبرج بين
أزهار معدمة ، فقد انتهى فصل الربيع ، وكان يلقي برأسه بين
يديه وقتا طويلا حتى أن أصابعه قد تركت اثرا في وجنتيه .
وقد قضى أيام الشتاء في منتدى حيث يقيم منعزلا لا يقرأ
الاخبار ولا يلعب البليارد . رأى هناك ، في الخريف وجها
يعرفه هو نويلهاك ولد قروي غليظ . كان يساعد والده في
الزراعة في أوثرن . ثم اشترى عينا مهملة في بلدته حيث أخذ
يرغب المستحمين في مياها . وقد أقبل على الاربعين ولا يزال
يافعا . قدم زجاجاته إلى لونجمار وأخذ يشرح له مشروعه .

عل بعد خمسين كيلومترا من كلير مونت ، على شاطيء
بحيرة ، وعلى قاعدة جبل من البازالت تقع المصححة . وكان
يسكن البلدة خمسة عشر من الماعز .

وقد ورث نويلهاك عن والده بعض المساكن الصغيرة التي
صارت فيما بعد أكواخا للأجانب . وأمام هذا البناء يقع فندق
قيصر الذي يتسع لثلاثين إلى أربعين سائحا . وهم يأملون في عمل

ملهى فى المستقبل وقد ابتداء برأس مال صغير . ولكن من يعرف فى المستقبل ؟ واخيرا طلب إلى لونجمار أن يرافقه ليكون طبيب المصحة . وكان لونجمار شهيرا فى عالم الطب . وماضيه فى الخدمة العسكرية الطبية مجيد وقد عهد فيه أصدقائه أستاذا عظيما . أجا ب !

— أن حماماتك محتبئة . لا يأتى إليها البتة إلا بعض الأوربيين المصابين بداء الخنازير . فأذا ذهبت إلى هناك فسأقيم الشتاء كالصيف .

وقد قبل دون معارضة المرتب الضئيل الذى عينه له نويلهاك . فى الغداة ذهب ليتجول فى پارى ليشتري قليلا من الثياب والآلات والكتب ، نحو الخامسة مساء . لما أن أنهى من شارع شامب - أليس ، رأى نفسه امام مثل جويجنول . وقد عقد جبل طويل إلى جذوع الأشجار كما تقفل الحلقة التى حجزت لجمهور النظارة . وفى الخلف جمهور الأطفال . لمح وسط النظارة شيخا فى ردينجوت باهت اللون ، يصوب نظره الحائر بين السماء والأرض . هذا هو المسيو فيليير دى سيساك الذى أثار روىاه ذكريات لونجمار .

صاحفه مسيو فيليير وهو يبحث عن عبارة يقولها ولكنه
عجز عن ذلك . قال لونجمار بجمان وعطف :

— هلم ، سأدلك على عمل .

— هذا حسن . ليس عندى أعمال هذا المساء .

قال أنه يقطن شارع تروتو :

وقد جلسوا فى الظلام ، فى أحدى حانات مونمارتر .

وكانوا يتبادلون النظرات وهم مشدوهين لا يعرفون أهو يوم
أم مائة سنه لم يروا أنفسهم خلاله .

لم يتحدثوا عنها . ولكن كلا منهم يتخيلها قريبه منه . قال
لونجمار وهو يكسر البندق أنه سيسافر

— سوف أدلك على عمل .

صدرت عينا الشيخ وصاح :

— أترك پارى ! ليس هذا بالامكان ! والأعمال ! لاهياة

إلا فى پارى .

فلم يستطع لونجمار ذى الأشجان والاحزان . أن يمنع
نفسه من الابتسام . هلم إذا ستصير هناك مفتشا ، مراقبا أو مديرا

رنت هاته العناوين فى رأس الشيخ الذى خلت يده من

العمل فتواعدا على الغداة . وقد حدث لونيجمار نفسه :
— أنه أقوى منى . حتى ليبدو كأنه صهرى .

لم يكن فصل الحمامات سيئا بالنسبة لنويلهاك . فقد جاء
بعض الروسين وعائلة من ليونى ليأخذوا المياه من مصحته .
أقام مسيو فيلير قريبا من الينبوع وتذوق الماء بقابلية . ولم
يعينه نويلهاك فى وظيفته حقا . وقد كان يدفع له من مرتب
لونيجمار . لقد قال له الطبيب :

— دعه يظن أنك تعطيه مرتبا . ولا تعلمه أن هذه هى
نقودى التى يقبضها أما أنا فسادبر أمرى .
أخذ يمرض بعض الروسين ودعى للتطبيب فى الجبل
المجاور .

رحل السياح كرحيل السنونو الواحد تلو الآخر . جاء الشتاء
وغطى الوادى بالسحب وقد انتشر الضباب حتى لتتراءى لك
اشجار الشربين الهائلة كالحىالات . وقفل الأفق يبحر من الظلام
وفى المصححة كنت ترى الصور التاريخية الحمراء والصفراء ،
وقد تقشرت . وفى فندق قيصر ، فى الواجهة ، كان يرى مسيو

فيلير يلعب الدومينو مع صاحب الفندق ، في حين جلس لونيهار
يدخن غليونه ، وقد حك قبضته اليسرى بأبهامه الأيمن ثم حدث
نفسه بصوت منخفض الحمى الشديدة - والألم الحاد في السوداء ،
والسعال ثم الضيق الذى يعاينه ، والألم الكبير فى منكبه الأيمن .
لا ينقص شىء . أى حملة جميلة تلك التى انصبت على .

وللرة الأولى منذ عام وأربعة شهور وستة أيام ، علت
• حمة الأنتسامة

استدراك

وقعت بعض غلطات مطبعية ولغوية نتركها لفطنة القارىء .
وقد ذكر فى الصحيفة الأولى أن حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
وهذا خطأ

